

## الباب السادس

فى نوادر التيس المشرقى

والكلب الإفريقى

obeikandi.com

قال الشيخ أبو المحاسن ؛ مَنْ ماء معارفه غير آسن ، ومن لممدود أرض الفضل من فضائله رواس<sup>(١)</sup> ، وفى مشحون بحر العلم من فواضله آمن : فابتهج الملك لهذا الكلام ، وارتاح لما تضمنه من الحكم والأحكام وأستزاد أخاد من عقود هذا النظام ، فقبل الأرض فى مقام الخدام .

[٤٢] وقال : بلغنى يا ملك الأنام ، أن راعيا يرعى ثلثة من الأغنام وحميلة من المعز الجسام وفى ماشيته تيس مطاع كلهم له أتباع ، وهو قديمها وقائدها وزعيمها وأبو نتاجها وحمو نعاجها ، وأصله من الشرق لم يكن بينه وبين إبليس فى الشيطنة فرق ، اسمه الذميم التيس الزنيم ، وكان بواسطة الفحولة والكبر والتقدم فى الحضر والسفر يستطيل ويصول ، وينطح الكباش والوعول ، ويكسر أصحاب القرون من الفحول ، فيجرح ضعيفها وي طرح نحيفها ، ويضرب بخالصها لفيها؛ إلى أن أباد أعيانها وأعجز رعيانها وطال منه العقوق ، فخرج به صاحبه إلى السوق ليبيعه ويستريح ويخلص الماشية من شره ويريح .

فبينما هو يطوف إذ قابله قصاب مخوف طويل القامة كبير الهامة ، كأنه زبنى القيامة ، شثن اليديين<sup>(٢)</sup> أزرق العينين ، بثوب وسخ وطرطور سنخ<sup>(٣)</sup> ، وسطه محزوم بسير مبروم ، فصدف الراعى وهو فى السوق التيس ، وقال : بكم هذا يا أبا الكئيس ؟ فوقع بينهما الاتفاق ، ووقع الزنيم فى شبكة الرباق<sup>(٤)</sup> ونظر إلى القصاب<sup>(٥)</sup> وصورته القاضية بالعجاب ، فرأى رجلاً كأنه من الشياطين معلقاً فى وسطه حدة سكاكين ، فدخله الرعب ورجف من الرهب ، وأدرك بالفراسة أنه سيهلكه ويحذف رأسه ، وقال ظنى والظن يخيب

(١) أى فضائله ثابتة راسية .

(٢) غليظ اليديين .

(٣) متسخ .

(٤) الربة : العروة فى الحبل . والمعنى شبكة الصياد .

(٥) الجزار .

ويصيب: إني وقعت مع هذا في يوم عصيب ، وأنه قاصد هلاكى ومقيم على البواكى ، فالأولى الاحتراز والتأهب قبل زمان الجزاز ، فإن حصل خير فما فى الاحتراز ضير ، وإن وقع على الإهلاك العزم ، فألتقى بما أعدته من ترس الحزم ، فوزن الجزار الثمن وشحط الزنيم بالرسن ، وأتى به مطايخ فقطعها إلى مسالخ<sup>(١)</sup> فشم رائحة لزهومه<sup>(٢)</sup> وأحس من الجزار نكده وشومه .

فلما دخل المسلخ ورأى القصابين هذا يذبح وهذا يسليخ ، واللحم شقات على الجدران معلقة ، وأنهر الدماء كدموع العشاق جارية ، ورؤس الغنم وجلودها وأكارعها كل كاشية<sup>(٣)</sup> ، هذه الكاشية فى ناحية وهذه الكاشية فى زاوية ، فرجف قلبه وازداد رعبه والتجأ إلى الله تعالى وتاب عما عليه من الذنوب مالا . فما واطأ القصاب المصارح أن شد من المشرقى الأكارع وجدله على الجدالة ، وأخرج لذبحه الآلة . فلما رأى هذه الحالة تحقق ما كان ظنه فاستحضر باله وأيقن أنه هالك لا محالة ، فنظر إلى القصاب وذكر ما قيل فى حق الساب :

نَظَرُوا إِلَيْكَ بِأَعْيُنٍ مُّحْمَرَّةٍ      نَظَرَ التِّيُوسِ إِلَى شِفَارِ الْجَاوِرِ

فوجد السكين كليلة ليس للذبح بها حيلة ، فطلب المسن ليحدها ويريح ذبيحته إن حدها ، فتركه وذهب للمسن ، وقد تحقق الزنيم ما كان ظن ، فتنفس له البلاء وارتخى عنه عقد الفضاء ، فتمطى فى رباط الأكارع فمزقه بحبل قاطع ثم وثب وقصد الهرب وخرج من الباب وصاحوا عليه هراب ، فلم يلتفت إلى الصوت ، وفر فرار من عاين الموت ، وطلب الخلاء وطريق الفضاء .

(١) مسالخ ، مفردها مسلخ : وهو مكان ذبح وسلخ الذبائح .

(٢) الزهم : رائحة اللحم السمين المنتن ، والمعنى أى تخيل نفسه بعد ذبحه وتعليق لحمه .

(٣) أى كل قطعة على حدة .

فأدى به الذهاب إلى بستان بجوار بيت القصاب فدخل البستان وامتد في الجريان ، والقصاب وراءه بهيئته المهولة والسكين في يده مسلولة ، وكان قبل هذا الزمان بين زوجة القصاب وصاحب البستان ما يكون بين الحرفاء والأخذان<sup>(١)</sup> ، وكانت كلما وجدت فرصة جعلت للبستاني من نفسها حصة ، تنزل من بيتها إلى بيته ، وتغمس سراجها من فتيلة قنديلته وزيتته ، فاتفق أن في تلك الحال طلب كل من المحبين الوصال ، وكان زمان اشتغال اللحام بالمعاملة مع الخاص والعام ، فلاشتغال وهله لا يتردد فيه إلى أهله ، فاغتمت الزوجة غفلة الرقيب ونزلت من بيتها إلى بيت الحبيب ، فكان المحبان آمنين وقد تعانقا تحت دوحة ياسمين ، فاتفق أن الهارب من الموت ودواهيته أخذ على مكان هما فيه والقصاب يتبعه رافعا يده والسكين في يده مجردة ، فلم تشعر إلا وزوجها رافع الصوت واقف على رأسها ويده آلة الموت ، وما شعر بدواهيتهما حتى عثر عليهما ، فقفز كلاهما من مكانهما مفتضحين في مكانهما ، فاشتغل القصاب بنفسه ، والتهى بنعجته عن نيسه ، وكان الناس تابعيه فوقفوا على ما وقع فيه ، وقامت الغوغاء وقعدت للعار من البلاء فتفرس النجاة من الردى ، فلم يزل في ميدان الجرى ذاهلا عما جرى؛ حتى وصل إلى ثغرة خرج منها إلى الصحراء فانقطع عن ذلك الجنى تابعه ، ولم يوجد من شياطين الإنس رائيه وسامعه ، فانتهى به التسيار في تلك الصحارى والقفار إلى جبل فأوى فيه إلى غار كان يأوى إليه مع المواشى أوان الأمطار ، فأمسى فيه تلك الليلة إلى وقت الأسفار :

فَلَمَّا رَأَى اللَّيْلَ الْعَبُوسَ صَنِيْعَهُ      تَبَسَّمَ فَافْتَرَقَتْ تَبَاشِيرُ فَجْرِهِ

فلما أصبح الصباح خرج إلى السّراح وهو فى نشاط ومراح ، وجعل يرتاد أنيساً ليكون له جليساً ، أو رفيقاً صالحاً أو صديقاً ناصحاً ، يتأنس به فى

(١) أخذان ، مفردها خدن : الحبيب والصاحب .

الغربة ويمسح بأنامل مؤانسته ثقل الكربة ، وما يحصل على جبين راحته من عرق القربة ، وبينما هو ينشر البيداء ويطوى إذ سمع نباح كلب يعوى ، فترجى الخير وزوال الضير ، ثم قصد نحوه فرآه مقبلا من فجوة ، فناداه أهلا بأحب الأحباب وأعز الأصحاب المفضل على كثير ممن ليس الثياب .

فلما دنا منه بادر إلى عنقه وتباكى لأليم فراقه ، فتعانقا تعانق المحبين وتباثا مباثة من حبه اليبين<sup>(١)</sup> ، ثم قال له : اعلم يا لطيف الحركات وكثيف البركات ، إن كلاً منا غريب ، وكل غريب للغريب نسيب ، وأنا قد تفرست فيك وما تكاد فراستى تخطيك ، إنك رفيق صالح وشفيق ناصح وأحسن مليح ممالح ، وفي طريقه إخوان الصفاء قيم وراجح ، وإن كانت الجنسية بيننا مختلفة ، لكن القلوب بحمد الله تعالى مؤتلفة : وكم لك من أياد سابقة ، وصدقات متأسقة ، وكم حططنا في المراعى وبتنا في الحظائر نائمين ، وأنت لحفظنا ساعى تحرسنا من الغداة إلى الرواح ومن المساء إلى الصباح ، فأخبرنى ما شأنك وأين مكانك وما اسمك وما صنعك ورسمك ، ومجيبك من أين وما حاجتك فى اليبين<sup>(٢)</sup> ؟ .

قال أما اسمى فيسار ، وأما مكانى فبلاد التتار ، وصنعتى راعى ، وسبب مجيئى ضياعى ، ولى صاحب اسمه أقرق من دشت قفجاف بن شقرق . كنت فى خدمته راعى ماشيته ، فأضللت رعيته وضيعت حق حرمتى ، فإذا أطلب ولى نعمتى لأمر من وصمة الجفاء سيمتى<sup>(٣)</sup> ، فهذا شأنى وجل بغيته .

قال الزنيم : أنا من حين شاهدت فى وجهك الأنوار ، علمت أنك يسار

(١) أى تلاقا وتعانقا من ألمه الفراق .

(٢) أى وما حاجتك يا زين الناحية ؟ .

(٣) وصفه ونعته .

وإنك معدن الذكاء والألقاب تنزل من السماء ، وأما طلبك لصاحبك ورعيته فإنه على كمال مروءتك ولا ينكر لك الرفاء<sup>(١)</sup> ، فإن بينك وبينه الوفاء مقام الصدق والصفاء ولم يقع بينكما قط بعد ولا جفاء ، وشهرتك بحمد الله بجميل الصفات التي قلما تجتمع في زكى الذوات ، ولا تصفو إلا للأولياء والبررة المبرزين الأصفياء من المسكنة والقناعة والجرأة والشجاعة وحفظ العهود والوفاء وكسر النفس والصفاء ، وعدم الحقد والحسد وإطراح العجب والنكد والحراسة والسهر وقيام الليل إلى السحر ، والتودد إلى الناس حتى قال فيك ابن عباس : كلب أمين خير من صديق خون<sup>(٢)</sup> . وعندك من التهذيب وقبول التعلم والتأديب ما يصير صيدك مذكى وسنك كالشفرة مزكى ، وفي شأنك يا ذا الوفاء والمنفعة قال الحارث بن صعصعة :

وَمَا زَالَ يَرْعَى ذِمَّتِي وَيَحُوطُنِي      وَيَحْفَظُ عُرْسِي وَالْخَلِيلَ يَحُونَ  
فَيَا عَجَبًا لِلنَّخْلِ يَهْمُكَ حُرْمَتِي      وَيَا عَجَبًا لِلْكَلْبِ كَيْفَ يَصُونُ

ومن هذا الضرب ما رواه أحمد بن حرب<sup>(٣)</sup> عن ذى العتاب منادم الكلاب، أن الكلب يكف عنى أذاه ويكفينى أذى سواه ، ويشكر قليلى ويحفظ مبيتى ومقيلى ، فهو من بين الحيوانات خليلى . ثم قال أحمد بن حرب : تمنيت والله أن أكون مثل هذا الكلب ، لأحوز هذه الصفات وأرقى هذه الدرجات .

وأرجو الله تعالى أن يعطفك على ويقلب قلبك ووجهك إلى ، بحيث

(١) الصلاح والوفاء .

(٢) خائن .

(٣) أحمد بن حرب : هو ابن فيروز ، الإمام القدوة ، شيخ نيسابور ، كان من كبار الفقهاء العباد ، من تصانيفه كتاب (الأربعين) وكتاب (عيال الله) توفى سنة ٢٣٤هـ سير أعلام النبلاء (١٨٣٥) .

ترغب فى صحبتى وتميل إلى صداقتى ، فترى إذ ذاك منى بحمد الله تعالى من الأخوة والصداقة والمرواة والرفاقه ما تنسى به كل صديق ، وتفضل به صاحب الجديد على العتيق ، فتترك سائر أصحابك وتلتهى بى عن أعز أوليائك وأحبابك ؛ خصوصاً بنى آدم الذين أنت بهم أعلم ، من أذهبت عمرك فى خدمتهم والقيام بحقوقهم وحفظ حرماتهم ، وحراسة مواشيهم ودورهم وكمال فضلك فى حياة بيوتهم وقصورهم ، ورعاية رعيانهم وصيانة أهلهم وجيرانهم، مع قناعتك منهم بما يفضل عنهم من كسرة خبز شعير أو عظم يابس أو فضلة مرقة قدير ، وإضاعتهم حقوق خدمتك ونسيانهم موجبات شفقتك، حتى لو وصل فمك إلى زادهم أو إلى شىء من عتيد عآدهم ، رموك بالحطب ورضوا<sup>(١)</sup> رأسك بالحجارة والخشب ، ولو ولغت<sup>(٢)</sup> فى إنائهم أو شربت من مائهم ما قنعوا فى تنظيفه وتطهيره وتشطيفه بمره ولا مرتين ولا اكتفوا فى إزالة لعابك بالعين ، بل دونوا الغسل بالحساب وعفروا الوعاء بالتراب<sup>(٣)</sup> ويعدون ذلك من التعبد ولا يرعون مالك من تحبب وتودد . وأنا أرجو أن ترتفع منزلتك وتعلو درجتك ويساعدك رب العرش حتى تسير سلطان السباع وملك الوحوش ، وأجتهد فى هذه القضية إلى أن أبلغ هذه الأمنية ، وأكون السبب فى ذلك إلى أن تصير رئيس الممالك ، فإن لك على حقا قديما وفضلا جسيما طالما نمنا آمينين فى ظل حراستك ، ورعينا مسرورين مكنوفين بحياطتك وأجلنا منك فى خاطر ما قال الشاعر :

بَقَاؤِكَ فِينَا نِعْمَةٌ اللَّهُ عِنْدَنَا  
فَنَحْنُ بِأَوْفَى شُكْرَهَا نَسْتَدِيمَهَا

(١) أى كسروا رأسك .

(٢) أى شرب ما فى الإناء بأطراف لسانه وحركه فيه .

(٣) حديث ولوغ الكلب فى الإناء : أخرجه الإمام مسلم : كتاب الطهارة ، باب حكم ولوغ الكلب (٩٤) وفيه : (إذا ولغ الكلب فى الإناء فأغسلوه سبع مرات وعفروه الثامنة فى التراب)) .

قال يسار: يا أخی جميع ما قررته صحيح مقبول ، داخل فى الفضل خارج عن الفضول ، ولكن أنا من جنس السباع مجبول على ما لهم من الطباع ، ومع هذا فأنا عدوهم ، وبسببى يزول هدوهم ، وأنا لم أعادهم إلا فيكم ولا لى واد إلا فى نادىكم ، فإن ترينى وبينكم وعينى مقارنة عينكم ، وأنا إليكم أقرب منى إليهم ، ومعولى عليكم دون معولى عليهم ، وعلى هذا وجدت آبائى وأجدادى ونشأت من حين ميلادى ، والخروج عن طريقة الإباء دليل على العقوق والآباء وهو أمر مذموم وهذا شىء معلوم ، وقد قال صاحب الشرع : «الحب يتوارث والبغض يتوارث»<sup>(١)</sup> ولكن يا سليم الطباع وخصيب الرباع ، قولاك : تصير سلطان السباع سخرية منى واستهزاء ، ولا أستحق منك هذا الجزاء ، فإن معنى هذا القيل أمر مستبعد مستحيل ، إن أبا طاهر نجس العين فأنى من أين ، وهذا الهوس من أين ، فإن أردت إعانتى على ذلك وتكفلت لى برياسة الممالك ، فكلنا فى هذا الهوى سواء ، وإن صمنا على ذلك فما لجنوننا دواء ، وهذا الوسواس من خيالات الإفلاس ، وفى مثل هذا الحال قال من صدق فى المقال : لا خيل عندك تهديها ولا مال . وأنا أعلم إنما تتكلم بما يطيب خاطرى ويسر سرائرى ويقربك فى الحب من ضمائرى .

قال المشرقى : لا تقل ذلك يا تقى ، فأنا شاهدت فى جبينك مخايل السيادة ومن شماتلك تقاطر السعادة ، وقد قيل يا فضيل : المرء يطير بهمته كما يطير الطير بجناحه . أما بلغك يا خير عالم ما رواه علاء الدين بن غانم ذو الفضل الكثير عن تاج الدين بن الأثير ، قال يسار أخبرنى بهذه الأخبار .

(١) حديث ذكره المتقى الهنذى فى كنز العمال (٢٤٦٨٢) بنحوه ، وعزاه للديلمى عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

[٤٣] قال : قال ابن الأثير<sup>(١)</sup> ؛ وهو بالرواية خبير ، مجزر أيدي المعاني عن الأمير حسام الدين البركة خاني قال : كنت في عصر الشباب أصحب من صالحى الشباب الملك المظفر قطز<sup>(٢)</sup> ، الغضنفر ، وكان خشداشى<sup>(٣)</sup> وبرويته انتعاشي ، فكنا ونحن صبيان كأننا ظبيان ، غير أنا كنا في قلة ، فكنت ألقى قمله وأسرح رأسه وأذهب يأسه ، وتقدمت إليه بالشرط عليه أن يعطينى لكل قملة فلسا ، أو أصفعه صفقة ملسا<sup>(٤)</sup> ، ففى بعض الأوقات أخذت عنه قملا كثيرا وصفعته صفعات ، وقلت فى غضون ذلك ونحن فى حال حالك : أتمنى على الله عز وعلا أن يعطينى امرأة خمسين رجلا .

فقال لى : طيب خاطرک وسر سرائک ، فإنى أبلغک سؤالک ، وأعطیک مسؤلک وأجعلک أمير خمسين فارسا فأبشر ولا تكن عابسا ، فصفعته صفقة وقلت : وبلك أنت تعطینى إمرة ورفعة . قال : نعم وأغمرك بالنعمة فصفعته أخرى وازددت نكرا .

فقال لى عله ونخس المسلة : يا قليل اليقين أتريد شيئا غير إمرة خمسين ، أنا والله أعطیک وأعليک على ذویک ، فقلت : ومن أين لك تعطینى وترضینى .

فقال أملك هذه الديار ، وأكسر التتار وأحل الكفرة والعلوج<sup>(٥)</sup> دار البوار .

(١) ابن الأثير : هو عز الدين على مؤرخ كبير من آثاره الكامل من التاريخ .

(٢) الملك المظفر قطز قاصم التتار وصاحب موقعة عين جالوت .

(٣) رتبة عسكرية .

(٤) خفيفا .

(٥) العلوج ، مفردهما العلج : الرجل الضخم القوى من كفار العجم ، وبعضهم يطلقه على الكافر عموماً .

فقلت له : يا مفتون أنت مجنون أبقملك وقِّلك وفقرك وذلك تملك الديار المصرية ، وتصير سلطان البرية .

قال نعم ولا تعمل زعم ، فإنى رأيت فى المنام النبى عليه الصلاة والسلام وقال لى : أنت تملك الديار المصرية ، وتكسر التتر ، ولا شك فيما يخبر به النبى ﷺ من خبر .

وقال : فأمسكت عنه ، لأنى كنت أعرف الصدق منه ، ثم تنقلت به الأحوال وتنقل إلى أن بلغ الكمال ، وتملك هذه الديار ثم كسر على عين جالوت التتار<sup>(١)</sup> ، وأعطانى ما وعدنى به وأرضانى .

وإنما أوردت هذا المثال ؛ لتعلم أن سلطنتك غير محال ، وأنا أرجو الله تعالى أن يبسر لى القيام بجميع ما قلته يا إمام ، وأنا أجلسك على السرير ، وأقيم فى خدمتك الكبير والصغير ، وأرفع راية مراسيمك ، وأنفذ أوامرها فى ممالك وأقاليمك ، وأجعل جنود الوحش تحت رايتك ، وأقاليم القفار كلها تحت ولايتك ، ولكن بشرط أن تتبع ما أراه ولا تخرج عن طوره ولا تتعداه ، وتعمل بكل ما أشير إليه ومهما أرشدتك إليه تُعول عليه .

فقال : أنا طوع يديك وجميع أمورى منك وإليك ، فقل فإنى سامع ولأمرك طائع ، فانهض وعانى هذه الأمانى ، عسى يصير هذا الباطل حقا وينقلب هذا الكذب صدقا وقل ما تقضيه لأتبعه وأرضيه .

قال : ترجع عما أنت عليه من من الأخلاق السبعية ، والأوصاف الكلبية من الحرص والشره والتكلب والتره<sup>(٢)</sup> والنفس المتمررة والطبيعة

(١) عين جالوت : هى موقعة انتصار المسلمين بقيادة السلطان قطز على جيوش التتار ،

وهو مكان فى فلسطين قرب الناصرة . معجم البلدان (٨٧٠٦) .

(٢) الباطل .

المدمرة<sup>(١)</sup> ، وتصوم عن الدماء واللحوم وعن تمزيق الحيوانات وتفريق الجماعات ، وتحمل النفس على الأخلاق الجميلة والتلبس بالأوصاف الفضيلة من العفة والكرم والعفو عن ظلم ، والقناعة بالنبات عن لحوم الحيوانات ، ومعاملة الكبير والصغير بالفضل الكثير والبذل الغزير ، وتلقى الخطير والحقير ليسهل العسير وينقاد لك الأمور منهم والأمير ، وهذا أمر عليك يسير ، وهذا لأنك طالما جرحت جوانحهم<sup>(٢)</sup> وكسرت جوارحهم ، واصطدت سارحهم وأبدت بارحهم ، فهم منك متخوفون وإلى الإيذاء والضرر منك متشوفون .

وإذا رأوا شيئاً خلاف العادة ، وعلموا أن ولايتك فيها الحسنى وزيادة ، وأصابوا الخير من مواقع الضير ورأوا ماسراً من مواضع الشر والضرر ، تشرب محبتك منهم الكبير والصغير ، وأنباك أن يراك من الوحوش العير والنفير فيتخذك الغريب حبيباً ، ويصير البعيد منك قريباً فتصيد بالمحبة أرواحهم كما كنت أو لا تبيد أشباحهم<sup>(٣)</sup> ، وإذا ضرب صيتك فى الأرض ونثر دره بالطول والعرض ، وتسامعت بك الوفود وتحققوا أنك عدلت عن خلقك المعهود ، أقبلت إليك منهم الجنود وزان جيد جنودهم من مجوهرات محبتك عقود ، وانعقدت بينكم بالمحبة والولاء عقود العهود فتوفرت إذ ذاك جنودك ، وعلت على رؤس الأقران راياتك وبنودك<sup>(٤)</sup> ، وجعلوا دارك مأواهم وحماك مصيفهم ومشتاهم ، مع إن هيبتك فى قلوبهم مركوزة وأسنة مخافتك فى أحشائهم من قديم الزمان مغروزة ، وأعلى من فيهم يهابك ويخشاك ويتوقى مكانك ويتحاشاك .

(١) الجريئة .

(٢) أى بليتهم وأهلكتهم . والجائحة البلية والتهلكة .

(٣) الأشباح ، مفرد ما شبح : الجسد .

(٤) شروطك .

قال يسار : اعلم يا خير سار إن حبال الآمال ومطامع الخيال ، مالم تتعلق بمأمول ، ولم ترتبط بأطراف سول ؛ فالنفس ساكنة والروح مطمئنة هادئة والقلب فرح والخاطر منشرح ، إذ الطمع ذل وشين ، واليأس إحدى الراحيتين ، ومتى تعلقت بذيل المطامع مخاليب الآمال ، وبلغت إلى حصول مأمول الخيال وقامت النفس فى تحصيله وتحركت الجوارح لنيل مأموله ، وانبعثت الهمة إلى إدراكه ، وتعلق القلب بسير أفلاكه ، توزعت الأفكار وتفرقت وتمزعت وركب لذلك لى صعب وذلول ، وتقاذفت النفس فى كل مخوف ومهول ، وتقلدت بحمائل قول القائل :

إِذَا لَمْ يَكُنْ عَوْنٌ مِنَ اللَّهِ لِفَتَى      فَأَوْلُ مَا يَجْتَنِ عَلَيْهِ اجْتِهَادُهُ

ثم إذا لم يحصل المأمول ولم تبلغ والعياذ بالله النفس السول ، مع بذل الجهد والمبالغة فى السعى والكد ومقاساة ومعاناة النصب ؛ ترادف النكد وتضاعف السهد ، وصارت النفس لهذا البدد وكان فى جيد حياتها من فوات المقصود حبل من مسد ، فلا تزال بين تشويش ضمائر وتقسيم خاطر وفكر غائب وهم حاضر ، وهذا الأمر الذى عزمت عليه وهممت بالترقى إلى الوصول إليه ، إلى عدم الحصول أقرب منه إلى الوصول ، وأنا أخاف وذا غير خاف أن يغرنا الطمع فى هذه الحركة فينتزع من فراغ أوقاتنا البركة ، ولا نحصل إلا على مثل ما حصل لمالك الحزين من السمكة : قال الزنيم : نبئى أيها العليم بذلك المثل القويم .

[٤٤] قال : بلغنى إنه فى مكان مكين مأوى لمالك الحزين ، وفى ذلك المكان غياض وغدرات تضاهى رياض الجنات :

حَكَى بِأَنَّهَا قَدِ الْحَبِيبُ تَمَايلاً      فَجَنَ وَفَى هَذَا الْجَنُونَ تَفَنُّنَا  
فَدَارَ عَلَيْهِ النَّهْرُ وَهُوَ مَسْلَسَلٌ      فَقَيِّدُهُ إِذْ قَدِ جُنَى وَتَجَنَّنَا

وفى مياهه من السمك ما يفوق سابحات السمك ، فكان ذلك الطير فى دعة وخير ، يزجى الأوقات بطيب الأوقات ، وكلما تحرك بحركة كأن فيها بركة ، حتى لو غاص فى تلك البحار والغدران لم يخرج إلا وفى منقاره سمكة .

فاتفق فى بعض الآناء تعسر عليه أسباب الغذاء ، وارتج لفوت قوته أبواب العشاء ، فكان يطير بين عالم الملك والملكوت يطلب ما يسد الرمق من القوت فلم يفتح عليه بشىء من أعلى السمك إلى أسفل الحوت ، وامتد هذا الحال عدة أيام وليال ، فحاض يوماً فى الرقراق<sup>(١)</sup> يطلب شيئاً من الأرزاق ، فصادف سمكة صغيرة قد عارضت مصيره فاخطفها ومن بين رجليه التقفها ، ثم بعد اقتلاعها قصد إلى ابتلاعها ، فتداركت زاهق نفسها قبل استقرارها فى رمسها ، فنادت بعد أن كادت أن تكون بادت ما البرغووث ودمه ، والعصفور ودسمه . اسمع يا جار الرضا ومن عمرنا فى صونه انقضى : لا تعجل فى ابتلاعى ولا تسرع فى ضياعى ؛ ففى بقائى فوائد وعوائد عليك عوائد ؛ وهو أن أبى قد ملك هذا السمك فالكل عبيده ورعيته وواجب عليهم طاعته ومشينته ، ثم إنى واحد أبوى وأريد منك الإبقاء على ، فإن أبى نذر النذور حتى حصل له بوجودى السرور ، فما فى ابتلاعى كبير فائدة ولا أسد لك رمقا ولا أشغل لك معدة فتصير مع أبى الفضيل كما قيل : فافقرنى فيمن أحب ولا أستغنى ، فالأولى أن أقر عينك وأعرف ما بين أبى وبينك ، فأكون سبباً لعقود المصادقة وفتاحاً لإغلاق المحبة والمرافقة ، ويتحمل لك الجميلة والمنة التامة والفضيلة .

وأما أنا فأعهدك إن أعتقنى ومننت وأطلقتنى ؛ أن أتكفل لك كل يوم بعشر سمكات بياض سمان ودكات<sup>(٢)</sup> ، تأتيك مرفوعة غير ممنوعة ولا مقطوعة ، يرسلها إليك أبى مكافأة لما فعلت. بى من غير نصب منك ولا وصب<sup>(٣)</sup> ولا كد تتحملة ولا تعب .

(١) الماء الرقيق فى البحر والوادي .

(٢) مستلمات ذليلات .

(٣) تعب .

فلما سمع البلشون<sup>(١)</sup> هذا المجون ، أغراه الطمع فما ابتلع فسها ولها ،  
ثم قال لها : أعيدنى هذه الرمزة ، فبمجرد ما فتح فاه بالهمزة أنملصت السمكة  
منه بجمزة<sup>(٢)</sup> ، وغاصت فى الماء وتخلصت من بين فكى البلاء ، ولم يُحصَل  
ذلك الطَّمَاع إلا قطع الأطماع .

وإنما أوردت يا ذا الدراية هذه الحكاية ؛ لتأمل عقبى هذا الأمر قبل  
الشروع فيه ، وتتدبر منتهى أواخره فى مبادئه فقد قيل : أول الفكر آخر  
العمل .

قال المشرقى : اعلم يا مرتقى إن مبنى الأمور فى مجاريها ، وقوات  
ما أسس عليه مبانيها تقدير خالقها وتدبير باريها ، وما حكمه وقضاه وأحكمه  
وأفضاه ، لكنه كتمه وأخفاه فلا تدركه العيون والأبصار بل ولا البصائر  
والأفكار ، فإنه علم غيب وجهلنا به ليس يعيب ، لأنه تنزه أحدا صمدا قال  
تعالى ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٦] . كما قيل :

على المرء أن يسعى ويبذل جهده      وليس عليه أن يساعده الدهر  
فإن نال بالسعى المنى تم أمره      وإن غلب المقدور كان له عذر

وإن الله العلى الأعظم قد وضع أساس بنيان العالم على الأسباب ،  
وفتح لتعاطى الأسباب الأبواب فقال ذو الجلال ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا  
لَنَهْدِيَهُمْ صُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] . وقال ﴿فَامْتَنُوا فِي مَنَّا كَيْبَهَا وَكَلُّوا مِن  
رُزْقِهِ﴾ [الملك: ١٥] . وقال القائل:

إذا ما كنت فى أمر مروم      فلا تقنع بما دون النجوم  
يرى الجبناء أن العجز حزم      وتلك خديعة الطبع اللئيم  
فطعم الموت فى شئ حقير      كطعم الموت فى شئ عظيم

(١) البلشون : طائر طويل العنق والجناحين والساقين يُعرف بمالك الحزين وهو يقعد  
بقرب المياه فإذا نشفت ظهر كئيباً .  
(٢) أى بحركة سريعة إلى الوراء .

وقال عليه الصلاة والسلام : ((علو الهمة من الإيمان))<sup>(١)</sup> . والمرء يسعى فى تحصيل مرامه ، ولا يترك شيئاً من أسباب قيامه ، فإن ساعده القدر بقدره انقاد إليه مرامه بشعره ، وكان مصادمه مساعده ومقاومه معاضده ، كما قيل :

وإذا أراد الله نصره عبده      كانت له أعداؤه أنصارا

فيساعده إذ ذاك الكون والمكان ويمضى سهم أوامره رامى القضاء من قوس الزمان ، فيقيض له المساعد ، ويتعبد له المقارب والمباعد ، وحسبك يا ذا الصولة ما اتفق من السعد لعماد الدولة<sup>(٢)</sup> فسأله يسار عن سرد هذه الأخبار .

[٤٥] قال : كان رجل صياد له ثلاثة أولاد كأنهم حمك<sup>(٣)</sup> وقوتهم السمك ، تقلبت بهم الأحوال حتى صاروا برياستهم على الدنيا أحمال وانتهوا فى الرياسة ، وساسوا الخلق أحسن سياسة ، وانتشر أمرهم وطاب فى الدهر ذكرهم ، ومما ملكوه العراق<sup>(٤)</sup> ، والأهواز<sup>(٥)</sup> ، وفارس وسرتها شيراز<sup>(٦)</sup> .

(١) حديث : ((علو الهمة من الإيمان)) . لم نعثر عليه فيما بين أيدينا من المصادر ، ولكن فى معناه ذكر العجلونى فى كشف الخفا (٣٣٥/٢) ولفظه : ((همة الرجال تُلغى الجبال)) . وقال الشيخ : لم أقف عليه .

(٢) أبو الحسن على بن بويه ، عماد الدولة من مؤسس دولة بنى بويه بفارس ، استولى على شيراز سنة ٩٣٤هـ وحكم فارس حتى وفاته عام ٩٤٩هـ . البداية والنهاية (٢٣٥/١١) .

(٣) الحمك : الصغير من كل شيء .

(٤) العراقان : اسم أطلق سابقاً على الكوفة والبصرة ، وأيضاً على العراق الحالى (العراق العربى) والجيلال (العراق العجمى) . معجم البلدان (٨٢٦٨) .

(٥) الأهواز : مدينة فى جنوب إيران وهى عاصمة خوزستان . معجم البلدان (١١٦٣) .

(٦) شيراز : مدينة فى جنوب إيران بجيلال زاجروس . معجم البلدان (٧٣٨٦) .

أكبرهم أبو الحسن على بن بويه ، الملقب بعماد الدولة . وكان فى السلطنة ذا جولة وصوله . ولما انتهت أيام خموله واتصل بالسعد أسباب وصوله ، حل ركابه بشيراز وصعد إلى حقيقة الملك من المجاز ، ووفدت عليه الوفود وأحاطت به جموع الجنود ، وطالبه أهل المراتب بالرواتب ، والروامك بالجوامك<sup>(١)</sup> ، والرفاق بالإنفاق ، والأجناد بالأرفاد ، وأرباب الولايات بالخلع والجرايات ، وأصحاب الإقامات بالنفقات والإنعامات ، ولم يكن فى خزائنه من ظاهر المال وباطنه ، ولا فى ذخائره من ظاهر الرشد وضمانه ما يسد رمقهم ويرد شريقهم ، فتراكمت همومه وتصادمت غمومه ، وتوالت أفكاره وتجادب به من بحر الحيرة در دوره وتياره ؛ لأن أمره كان فى مباديه وليل سعه فى هواديه ، وقد قصرت عن طول الطول أياديه ، وأشرف أمره على الاختلال ، وملكه على الاضمحلال ، ووقع فى يوم لا يبيع فيه ولا خلال فدخل إلى مكان خال وهو مشغول البال فاستلقى فيه على ظهره وغرق فى بحار فكره .

فبينما هو يلاحظ السقوف ، وأفكاره بين تردد ووقوف ، وإذا بحية عظيمة بجثة جسيمة من السقف خرجت ودرجت وفى مكان آخر ولجت ، فوثب واقفاً ورقب خائفاً لئلا تسقط عليه ويصل أذاها إليه ، ودعا الفراشين وجماعة فتاشين بمعاول النباشين ، وأمرهم بنصب السلم والفحص عن الأرقم<sup>(٢)</sup> ، وتتبع آثارها وإطفاء شرارها فصعدوا الحيطان وحفروا ذلك المكان ، وخرقوا سقفه ، فانفتحت لهم غرفة كانت مخبأ لمن تقدمه وضع فيها ديناره ودرهمه ، وفيها عدة صناديق محكمات التوفيق والمعاليق ، فأطلعوه

---

(١) الروامق : القائمين على خدمة الدولة . والجوامق : مرتب خدام الدولة من العسكرية

والمماليك .

(٢) الثعبان .

على تلك الخبية<sup>(١)</sup> و التهوا عن طلب الحية الجبية ، فأمرهم فنقلوها إليه ووضعوها بين يديه ، فإذا فيها من الذهب النضار خمسمائة ألف دينار ، فعرف أن ذلك عناية ربانية ومواهب صمدانية رحمانية ، فصرف المال فى إصلاح حاله ، وبذره فى مزارع قلوب خيله ورجاله فثبت أوتاده واستقامت أجناده وقويت سواعده وأعضاده ، وكان أمره قد أشرف على الاختلال وعقد نظامه على الانفراد والاحتلال .

وكان من تمام هذه السعادة وتعقيب هذه الحسنى بالزيادة أن الملك المذكور بعد هذه الأمور وحصول هذا السرور ، وانتظام مصالح الجمهور ، أراد تفصيل قماش وخياطة خلع ورياش ، فطلب خياطاً ثقة ليقلده هذه المنطقة<sup>(٢)</sup> ، فأرشد إلى خياط ماهر شكله زاهر وفضله ظاهر وحذقه فى صناعته باهر ، إلا أنه أطروش<sup>(٣)</sup> حقل سمعه بدبى الوقر-مدبوش<sup>(٤)</sup> . فما يصل ملك الكلام إلى سرير صماخه<sup>(٥)</sup> إلا يزمر وطبل وجاروش<sup>(٦)</sup> ، فدعاه فأجلسه بين يديه وطلب الثياب ليعرضها عليه فتصور الخياط أنه سعى به إليه بسبب ودیعة كانت لصاحب البلد لديه ، وإنما طلبه ليطالبه ، فإما أن يؤدبه أو يعاقبه ، فتقدم باليمين مثل المصارعين ، وأقسم بالله خالق المخلوق ورازق المرزوق أنها اثنا عشر صندوق لم يشعر بها مخلوق وإنه لا یدرى ما فيها ، وإنها مختومة بختم معطيها ، فتعجب عماد الدولة من كلامه وسجد لله شكراً على إنعامه .

(١) الستر والمكان المخبأ .

(٢) الحزام يُشد على الوسط .

(٣) أى ذا صمم .

(٤) الدبش : أثاث البيت . والمعنى أى فاقد السمع .

(٥) الأذن .

(٦) الحك محدثاً صوتاً .

ثم وجه معه من أتى بها ودخل إلى بيوت ما فيها من أبوابها ، فكان ما فيها من الأموال ونفائس القماش العال جمل متكاثرة ، وأصناف متوافرة ، واستولى على ذلك كله وثبت بواسطة المال فى ركاب الملك واطى نعله .

وإنما أوردت هذا التنظير يا ذا الرأى والتدبير ؛ لتعلم أن مسبب الأسباب وميسر الأمور الصعاب ، إذا دبّر مصالح عبده وشمله بإحسانه ورفده ؛ هون عليه كل عسير وصغر كل كبير ، وأنت بكل هذا بصير .

قال يسار : صدقت وصوابا نطقت ، ولكننى نظرت إلى الدنيا ورزنت<sup>(١)</sup> أحوالها السفلى والعليا ، ورأيت كلما زاد الشخص حرصاً وطمعاً ازداد لنفسه عبودية وتبعاً وللدنيا وللآخرة رشقاً<sup>(٢)</sup> ، فصارت قيوده أثقل وحسابه أشد وأطول ، وهمومه أتم وغمومه أعم ، وإن الواثق بالدنيا والراكن إلى ما فيها من أشياء كالجاعل له من السحاب حصناً ومن الحباب كنا<sup>(٣)</sup> ، وأى وقاية تحصل من السحاب وأى إيواء يصدر من الحباب ، ومن تأمل الدنيا بعين التبصر وتفكر فى تقلباتها بمصيب العقل والتدبر ، عد جمعها شتاتاً ، ووصلها انتباتاً ومجئتها ذهاباً ، وشرابها سراباً ، وإقبالها إدياراً ونسيميا إعصاراً ، وعطاءها أخذاً ، وعيدها نبذا وصلتها فلذا وهبها نهبا ، وإيجابها سلبا ، وحربها سلما ، ووجودها عدما ، وكثرتها قلا ، وعزها ذلا ، وضحكها نياحه ، وطلاقها راحة ، فلم يكن عنده أحسن من فراقها ولا أراضى من طلاقها ، والقناعة منها بالكفاف والرضا منها بالعفاف ، كما سلك الفلاح صاحب الماشية واستراح . فقال الزنيم : أخبرنى كيف كان ذلك يا حكيم .

[٤٦] فقال : إن مخدومى الذى كنت عنده أحفظ ماشيته وعبده كان ذا ثروة عظيمة وأموال كثيفة جسبمة ، وكانت ماشيته لا تزيد فى القياس عن

(١) جربت .

(٢) أى رماها وراء ظيهره .

(٣) أى كالجاعل من حبات الرمل حصناً له .

ألف راس ، وإن حصل من النتاج المعهود ما يزيد على هذا القدر المحدود؛ تصدق به أو باعه أو وهبه لبعض الجماعة ، ولو أراد لجعلها ألوفا مؤلفة وأضعافا مضاعفة ، وكان فى الجيران والأصحاب والإخوان من هو أقل منه مالا وأقصر باعا وأضيق مجالا ، له الألوفا من المواشى ، وكذلك من الخدام والحواشى ، وهم فى كل وقت فى ازدياد وتضاعف الأعداد من الأصول والأولاد ، ومخدومى لا يقصد الزيادة وإن زاد شىء أباده .

فقال له الراعى وكان عليها أشفق ساعى : يا مخدوم مآلك لا تريد أن تزيد مواشيك وحواشيك ، وتكثر بالرفق والرفد فواشيك<sup>(١)</sup> ، وبالورود الإصدار غواشيك ، فإن المواشى تزداد فوائدها وتتوفر عوائدها ، باعتبار زيادة أصولها وإدراار منافعتها ومحصولها ، وجيراننا كانوا أقل عدداً من هذا المقدار فصاروا بالتوفير أكثر عددا فى الأغنام والأبقار ، فزادوا على مواشينا بعد أن كان أوساطهم كحواشينا ، ولا أعرف لهذا موجبا ولا أدرى له سببا غير الإهمال وقصد تضييع المال .

فقال مخدومى : هذا محيط معلومى ، ولكن أيها الولد اعلم أن أنواع العدد آحاد وعشرات وألوفا ومئات ، فالألوفا غاية الأعداد إذا اعتبرنا التعداد ، والشىء إذا جاوز غايته وتعدى نهايته أخذ فى النقص ، وإذا بلغ مداه تراجع بالنكص ، وقد قيل : الشىء إذا جاوز حده شاكل ضده ، ومن لم يقنع بالقليل لم يرض بالجزيل ، ولقد أحسن المقال وصدق فيما قال من قال :

وما الدهر إلا سلم فبقدر ما يكون صعود المرء فيه هبوط  
وهيهات ما فيه يزول وإنما شروط الذى يرقى إليه سقوطه  
فمن كان أعلى كان أوفى تهشما وفاء بما قامت عليه شروطه

وكثيراً ما رأيت وسمعت ووعيت عن أصحاب الألوفا القاصدين

(١) دواعى الفخر .

لازدياد المؤلف نزلت ألوفهم إلى الواحد من الأحاد فاستولى عليهم لذلك  
الهموم والأنكاد ، فتكدرت خواطرهم واشتعلت ضمائرهم ، وأما أنا فلم أعلم  
أن ألقى نقص ولا جارى حلبة مداه نكص ، فإذا عدا غايته ألزمته نهايته  
وكبحت جامع طرفه ، وكففت طامح طرفه ؛ طلباً للراحة ورغبة في  
الاستراحة :

فكم دقت ورقت واسترقت فضول العيش أعناق الرجال  
وإنما أوردت هذا التمثيل ؛ لتعلم يا ذا التفضيل إنى ما دمت له خادماً  
وفى وصف الخدمة قائماً ، ولم أتعد طورى وهو مقام الخادمية إلى ما ليس  
لى وهو مقام المخدمية ، فأنا مستريح ولغيرى مريح ونفسى مطمئنة ،  
وجوارحى عن طيش السعى مرجحة ، وأصحابى أحابى ، وأحابى  
أصحابى ، والخواطر صافية ، والمحبة وافية ، والصدقة باقية ، ومياه المودة  
فى رياض الأرواح صافية وفى عروق الأشباح واقفة جارية ، فإذا رمت مع  
وجود هذه الحسنى الزيادة وقصدت التعدى إلى ما ليس له به عادة ، فأنا بين  
أمرين متقلب على جمرتين ، إما عدم الحصول والاتقطاع عن الوصول ،  
فتضاعف المكذبات وتترادف المقسمات ، وبحسبها تصل الهموم وتحصل  
الغموم كما مر سالفاً وذكر آنفاً ، وإما الظفر بالمراد على حساب ما يراد  
فبقدر ذلك يقع الصداع ، ويقوم التحاسد والنزاع ، وأول ذلك معادة الأصحاب  
ومعاناة الأحابى ومقاساة الأتراب ، وحصول الضغائن وبروز المكامن ؛  
بواسطة الترفع عليهم وصدور المراسيم والتقدم بامثالهم إليهم ، فالأولى  
بحالى التفكير فى مالى واللائق بشورى أن لا أتعدى طورى ، ولا أتورط فى  
هذا البحر العميق والبئر الغميق ، ولا أخرج عن سواء الطريق فتهوى بى  
طير الهوان فى مكان سحيق :

وإنى يسار خائف أن يردنى زمانى بما لاقى يسار الكواعب

قال المشرقى أبو زنمة : ما أحسن هذه الكلمة وأيمن هذا النظر، وأرصن هذه الفكرة ، وأدق معانى هذه المباني ؛ ولكن إذا رفعك الله من يضعك ، وإذا أعطاك من يمنحك وقد قال ذو الجلال ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر: ٢] وقال صلى الله عليه وسلم ((اللهم لا مانع لما أعطيت))<sup>(١)</sup>.

وكل الناس تطلب المعالى ونفس الحر تأبى أن تضامنا

فلما بلغ بهما الكلام إلى هذا المقام قال يسار : اعلم يا فحل الفحول، وإمام المعقول والمنقول ؛ أنى ما بلغت فى الامتاع إلا لأقف على ما فيك من طباع، أسبر ثبوت قدمك وثباتك وراء كلمك ، فلقد وجدتك فى هذا الأمر الخطير فوق ما فى الضمير ، وفى مواطن الاختيار أثبت جنانا من ابن الليث الصفار ، فانهض لقصدك وحركته على خيرة الله تعالى وبركته ، فإنى وضعت عنان جموح هذا المرام فى يد تدبيرك ، وجعلت واسطة هذا العقد جوهره تفكيرك ، وسلك نظامه ونظام قلالته جودة تصويرك ، فإنك أهل لذلك وبرأيك تقتدى المسالك ، فابتهج أبو زنمة بهذا المقال ووثب فى مقام الخدمة، وقال : حيث انشرح صدرك لكلامى ، فسترى فى وجهك مجالس قيامى ، وأنا أعلم أن معبودك سيبلغك مرامك ومقصودك ، ولكن يجب التيقظ ، وقبل الشروع التحفظ . أما التيقظ فلا ير يجعلها الملك مقتدى ولا يغفل عنها أبدا ، كما فعل الملك الظاهر الموفق أبو سعيد محمد جقمق<sup>(٢)</sup> .

[٤٧] قال : حين اضطربت الأوامر واختلفت العساكر واصطدمت الأمر ، وخرج عليه من عساكره الجمهور ، وقل المعين ، وذلك فى سنة اثنتين وأربعين ، فعصى تنكرى وتترس فى حلب ، وقام بالراكمة الجلب ،

(١) الحديث أخرجه البخارى : كتاب الأذان ، باب الذكر بعد الصلاة (٨٤٤) .

(٢) المالك الظاهر جقمق ، سلطان المماليك من سنة ١٤٣٨ إلى سنة ١٤٥٣م ، كان وصياً على يوسف ابن برساي ، فلعله بعد توليته بثلاثة أشهر ، وكان متشدداً فى الدين ، ونعمت البلاد فى أيامه بالهدوء .

وإينال الحلبي بالشام وكاتبه الطغام والعظام ، وهرب بالقاهرة العزيز وأزت الشيطاطين فاشتد الأزيز ، وتخبط بالصعيد العريان ، وفشا في عساكر الإسلام، الطريان<sup>(١)</sup> .

فسفه الحليم ، وحرار الحكيم ، وضل كل ذى رأى قويم ، فثبت الملك الظاهر وتعرف إلى الله تعالى فأزال استيحاشه ، وأصفى سرائره ، ولم تنزل سيرته ظاهرة فكان الله عوناً وناصره ، فأطفأ بأدنى لطفه شواظ تلك النائرة .

وقد بسط ذلك في سيرته الظاهرة فتبدل الجحيم بالنعيم ، ورفع الله تعالى عن الإسلام والمسلمين العذاب الأليم ؛ كل ذلك بثبات القدم وعلو الهمم ، ولم تحصل هذه الفعلة الذكية الرائحة ، إلا بالطوية الطيبة والنية الصالحة . وأما التحفظ فمن مواد شرور ملتبس بها الجمهور ؛ منها الحقد والملال والكذب في المقال والحسد والاحتيال . فإن الحقود وقود ، والحسود لا يسود ، والكذوب يذوب ، والملول لا يطول ، والمحتال مغتال ، وباقى النصائح الذكية الروائح تأتيك بالسعد فيما بعد .

وأنا الآن أقدم للبيان وأذكر الأهم وما فائدته أعم ، قبل الشروع أمام المقصود ، وهو تأكيد موثيق العهود ، فإنه إذا حفتك الجنود ، وأحاط بك أرباب الرايات والبنود ، وأنت جالس على السرير وفي خدمتك المأمور والأمير والكبير والصغير ؛ يعسر على استيفاء الخطاب ، واستيعاب الجواب ، ولا يليق بعظمتك ومقام حرمتك إطالة الكلام ولو اقتضاه المقام ؛ خصوصاً بحضور الخاص والعام ولو كان المتكلم أعز الخدام وأقرب الأئام<sup>(٢)</sup> ، فلا أقدر أن أتجرأ عليك وأنهى جميع ما أريده إليك ؛ لأن قصد الخادم إقامة حرمة مخدومه ، والمبالغة في حفظ ناموسة وتعظيمه ، وكثرة الكلام تمنعه عن هذا القصد وتدفعه ، وأما في هذا الوقت فإن كثير كلامي لا يورث شيئاً من المقت فلا حرج على كلامي كيفما خرج .

(١) الاضطراب .

(٢) أقرب الأقرباء .

قال يسار : بارك الله فيك وأبقاك لذويك ، فما أدق نظرك وأحسن في عواقب الأمور فكرك ، وأصوب غوصك على جواهر الانتقاد ، وأغرب بوصك<sup>(١)</sup> إلى زواهر الاعتقاد ، فقل ما بدالك مما يزين حالى وحالك ، فإن حرمتى حرمتك وحشمتى حشمتك ، فإن عظمتى فقد عظمت نفسك ، وإن وفرت مالى فقد زدت كدسك<sup>(٢)</sup> . والخادم إذا لم يقصد رفعة مخدمه ويعد ذلك من أكبر همومه ، ويسعى فيه ساعة فساعة وفى كل مكان وعند كل جماعة ، وإلا فيدل ذلك على خساسة مقداره ، وقصور نظره ولؤم نجاره<sup>(٣)</sup> ، وركاكة همته واستبدال حرمة .

فقال أبو زنمة : أول شروطى يا ذا العظمة : أن لا تقترب المؤذين ولا تلتفت إلى الأسرار المغتابين ، ولا تضيع الأوقات فى الإغماء إلى القينات ، ولا تسمع كلام واشٍ وتعد كلامه أقل من لاش .

ثانيها : أن لا تعجل فى فصل الحكومات ؛ بل تتعاطاه بالتفتيش والالتفات إلى أن تتجلى صورتها وتتعين حقيقتها ، فإذا وضحت لديك ، وتخلت مخدرة حقيقتها عليك ، أجهد فيها بالصدق وأعمل بما يقتضيه الحق .

ثالثها : أن لا تعود لسانك الفحش والبذاءة ، فإن فى ذلك على الملك أسوأ إساءة فإن الكلام يؤثر فى القلوب ، وينفر من قبيحه الطالب والمطلوب وقد قيل :

جراحات السنان لها التئام ولا يلتام ما جرح اللسان<sup>(٤)</sup>  
[٤٨] وقد قيل : إن عيسى عليه السلام مر بجماعة فى بعض الأيام فصادفوا كلباً أجرب فقال له : سلمك الله اذهب ، فقال كل من أصحابه ، مما كان مُعَبِّى فى جرابه من الاستنقاص وطلب البعد عنه والمناص ، وما سلموا إلى عيسى حاله ؛ بل سألوه عن كلامه له وما دعا له .

(١) السبق والتقدم .

(٢) أى زدت ، وتكدس حبك عندى .

(٣) أى القصد .

(٤) السنان : فصل الرمح .

فقال : إني عودت لساني ببيان ما في جنائي ، وهو المقاصد الحسنة وترك الألفاظ والعبارات الخشنة .

[٤٩] وقيل : إنه مر في بعض الأوقات ومعه جماعات ، بكلب من الأموات ، ملقى على مزبلة في جملة القاذورات ، فوضع كل منهم يده على خطمه<sup>(١)</sup> ، وتكلم في رائحته عند شمه . فقال عيسى عليه السلام : ما أحسن بياض أسنانه ، فقيل له عما سمع من بيانه .

فقال : عودت لساني بلفظ الخير وإن لا يتكلم بما فيه ضير .

وكما يجب على الملك كف اللسان الفصيح عن الكلام البذيء القبيح ، كذلك يجب عليه أن لا يصغى إليه ويتأمل قول الشاعر :

وسمعتك صن عن سماع القبيح      كصون اللسان عن النطق به  
فإنك عند سماع القبيح      شريك لقائله فانتبه

ووجد في كتاب (آداب الصحبة) لأبي عبد الرحمن السلمى<sup>(٢)</sup> بيت

ثالث :

وكم أزعج الحرص من طالب      يوافقى المنية عن مطلبه

وهذا الأمر يا مخدوم لكل أحد معلوم على العموم . وأما أكابر السلاطين والملوك الأساطين فهم أعلى مقاما أن يكون الفحش لهم كلاما ، وأن يجرى في مجالسهم ، أو يسمع من محادثهم ومجالسهم ، وكل ملك اعتاد مجلسه فاحش الكلام اختل نظامه ومقته الخاص والعام ، ونفرت عنه قلوب الرعية ، وبحسب رغبة الرعية تكون الممالك راضية مرضية ، وإذا نفرت

(١) أنفه .

(٢) عبد الرحمن السلمى : محمد بن الحسين بن محمد بن موسى الأردى ، السلمى الأم ، الإمام الحافظ المحدث ، شيخ خراسان وكبير الصوفية ، أبو عبد الرحمن النيسابوري الصوفي صاحب التصانيف مات سنة (٤١٢هـ) بنيسابور . سيز أعلام النبلاء (٣٧٩٩) .

قلوب الرعية كرهوه وتوقعوا غيرده ليقوموا معه وينصروده ، وإذا لم يوجد عقودا الحقوق واستمروا أذلاء كاليهود ، والبغضة كامنة والخسائف<sup>(١)</sup> باطنة، فتقدم العداوة وتتقدم وتتأكد وتتأزم ، وإذا قدمت العداوة ذهبت من الصداقة الحلاوة ، فلا بد يوماً من الأيام أن تبرز رأسها من جيب الانتقام ، وإذا وجدوا فرصة وثبوا عليه وقصدوا قصه كما جرى للفريرة مع الهريرة . قال يسار :  
يَبِين لى هذه الاخبار .

[٥٠] فقال : ذكر شخص معتبر من رواة الخبر ؛ أن فى القديم كان رجل عديم وعنده قط رباد وأحسن مرباه ، فكان عنده كالولد الأعز وأكرم من ابن الفرات<sup>(٢)</sup> عند ابن المعتز<sup>(٣)</sup> ، وكان القط قد عرف منه الشفقة ، وألف منه المودة والمقة ، فكان لا يبرح عن مبيته ولا يسعى لطلب قوته ، فحصل له هزال وتغير ماله من أمر وحال لا عند صاحبه ما يغذيه ، ولا هو ذو قوة عن الاصطياد تغنيه ، إلى أن عجز عن الصيد ، فصار يسخر به من أراذل الفيران كل عمرو وزيد وصار كما قيل :

خَلَّتِ الرِّقَاعُ مِنَ الرُّخَا	خ وَفَرَزْنَتْ فِيهَا الْبِيَادِقُ <sup>(٤)</sup>
وَسَابَقَتْ عُرْجُ الْجُمَيْرِ	فَقُلْتُ مِنْ عَدَمِ السَّوَابِقِ
وَسَطَا الْغَرَابُ عَلَى الْعَقَا	ب وَصَلَا فَرَخُ الْيَوْمِ بِالشَّقِيقِ <sup>(٥)</sup>
سَكَّتَتْ بِلَابِلَةُ الزَّمَا	ن وَأَصْبَحَ الْخَفَاشُ نَاطِقُ

(١) الكراهية والبغض .

(٢) ابن الفرات : وزير عباسى ، الوزير الكبير ، أبو الحسن ، على بن أبى جعفر بن الفرات ، ولما جرت فتنة ابن المعتز ، وقتل العباس الوزير ، وزر ابن الفرات سنة ٩٦هـ وتمكن ، فأحسن وعدل ، وكان سمحاً مفضلاً محتشماً ، ثم عزل ووزر عدة مرات مات سنة ٢٩١هـ . سير أعلام النبلاء (٢٨٠٢) .

(٣) ابن المعتز : خليفة عباسى .

(٤) الرُّخُ : قطعة من قطع الشطرنج وهو الطايبية ، والبيدق : عسكرى الشطرنج ، والمعنى : أى خلت الأرض من أصحاب الهمة والسمو وامتلت بالأراذل .

(٥) الباشق : من أصغر الطيور الجارحة .

وأيضاً :

وإذا خلا الميدانُ من أسدٍ رقص ابنُ عرسٍ ونومسَ التَّمسُ

وكان في ذلك المكان ، مأوى لرئيس الجرذان ، وفي جواره مخزن  
للسمان فاجترأ الجرذان لضعف أبي غزوان ، وتمكن من نقل ما يحتاج إليه ،  
وصار يمر على القط آمناً ويضحك عليه ، إلى أن امتلأ وكره من أنواع  
المآكل والمطاعم ، وحصل له الفراغ من المخاوف والمزاحم ، واستطال على  
الجيران واستعان بطوائف الفيران على العدوان ، فافتكر الجرذان يوماً في  
نفسه فكراً أداه إلى حلول رسمه ، وهو أن هذا القط وإن كان عدواً قديماً  
ومهلكاً عظيماً لكنه قد وقع في الانتحال وضعف عن الاصطياد لقوة الهزال ،  
وقوتى إنما هي بسبب ضعفه ، وهذا الفتح إنما هو حاصل بحتفه ، ولكن  
الدهر الغدار ليس له على حاله استمرار فربما يعود الدهر عليه وترجع  
صحته وعافيته إليه ، فإن الزمان الكثير الدوران ينهب ويهب ويعطى ما  
سلب ، ويرجع فيما وهب ، كل ذلك من غير موجب ولا سبب ، وإذا عاد القط  
إلى ما كان عليه يتذكر من غير شك إساءتى إليه ، فيثور قلقه ويفور حنقه ،  
ويأخذه لأذى والانتقام سهره وأرقه ، فلا يقر لى معه قرار ، فأحتاج  
بالاضطرار إلى التحول عن هذه الديار ، والخروج عن الوطن المألوف  
ومفارقة السكن المعروف ، أمر صعب مشوم الكعب ، فلا بد من الاهتمام قبل  
حلول هذا الغرام ، والأخذ في طريقه الإخلاص قبل الوقوع فى شرك  
الاقتصاص .

ثم إنه ضرب أخماساً لأسداس فى كيفية الخلاص من هذا الباس ، فأداه  
الفكر إلى إصلاح المعاش بينه وبين أبى خراش ؛ ليُدوم له هذا النشاط  
ويستمر بواسطة الصلح الانبساط ، فرأى أنه لا يفيد ما يريده إلا بزرع  
الجميل من كثير وقليل ؛ خصوصاً فى وقت الفاقة فإنه أجلب للصدقة وأبقى

فى الوثاقفة . ثم بعد ذلك ىترتب عليها العهود وىتأكد ما ىقع عليه الاتفاق من العقود ، وهو أن ىلتزم الجرذان أن ىقوم لأبى غزوان فى كل غداة من طىب الغذاء ما ىكفیه لغداء وعشاء ، لأن الشىخ فى الدرس قال : خىر المال ما وقىت به النفس ، إلى أن ىصح جسده وىرد إلىه من عىشه رغه ، وىكون ذلك سبباً لمعقود الصداقة ، وترك العداوة القدىمة المساقاة ، وإن تشترط دوام المحبة وازدىاد الوداد والصحبة ، وأن لا ىقصد أبو الهىثم أباً راشد بشىء من الأذى والشرور والمفاسد وىعمل هذا الهر بموجب ما قال الشاعر :

إن الكرام إذا ما أسهلوا ذكروا  
من كان يألفهم فى المنزل الخسین

ثم إن الجرذان جمع من الأخباز والأجبان ، واللحم القدىد والمطعم المزىد ما قدر على حملة ونهضت قوته بنقله ، وقصد مقام الهر وسلم علیه سلام مكرم مبرر ، محب قدىم وصدىق حمىم ، وقدم ما معه إليه وترامى بكثرة التودد والاشتىاق علیه .

وقال : ىعز على وىعظم لدى أنى أراك ىا خىر جار فى هذا الضرر والاضطرار ، ولكن العاقبة إلى خىر وسىقبل السعد بأحسن طىر ، فتقدم أىها الخىطل<sup>(١)</sup> وكل من هذا المأكل ، فإذا سددت خلتك كلمتك بشىء أستشىر به خدمتك فإنه قد قىل :

بعد السلام طعام ثم ترحىباً	إن الصداقة أولأها السلام ومن
وضىحك ثغر وإحسان وتقرباً	وبعد ذاك كلام فى ملاطفة
بىن الأجىة تأبىد وتأدىباً	وأصل ذلك أن تبغى شمائلها
قد زان ذلك تهذىب وترتىباً	لم تنس غىباً ولم تملل إذا حضروا
لم ىُنْهَم عنه نرغىب وترهىباً	إن الكرام إذا ما صادقوا صدقوا

(١) الخىطل : أسماء الكلب أو السنور .

فتناول القط من تلك السرقة ما سد رمقه ، وشكر للجرذان تلك الصدقة .  
و لما أكل فمه استحيت الحدقة ، ثم قال له : أنشد ما أنت يا أبا راشد قال : إن  
لى عليك من الحقوق ، مثل ما للجار الصدوق على الجار الشفوق وأردت أن  
يتأكد الجوار بالصدقة ، وتتراقى إلى درجة المحبة بأوثق علاقة ، وإن كانت  
بيننا عداوات قديمة فنترك من الجانبين تلك الخصلة الذميمة ، ونستأنف  
العهود على خلاف الخلق المعهود ، وتدير الأمور على مصلحة الجمهور ،  
ونبنى القاعدة فى البين على ما يعود نفعه على الجانبين ، وأذكر لك أشياء  
تحملك على ترك خلقك القديم ، وتهديك فى طريق الإخاء إلى الصراط  
المستقيم ، وهو أن أكلى مثلاً ما يغذى منك بدنا ، فضلاً عن أن يظهر فيك  
صحة وسمنا ، ولكن إن أمنتى مكرك وأعملت نظرك وفكرك إلى أن أستوثق  
باستصحابك وأبيت أماناً فى مجيئك وذهابك ، ولو كنت بين مخالبك وأنيابك ،  
فإنى ألتزم لك فى كل يوم إذا أستيقظت من النوم بما يسد خلتك ، ويبقى  
مهجتك صباحاً ومساءً وغداً وعشاءً ، وإن قلت إن ذلك شىء مجهول فأنا  
بنظير هذا المأكول ؛ فإن هذا الغذاء يكفيك عشاءً وغداً ، وما قصدت بذلك  
إلا رعاية لحق ، ولقد انستى بتسيحك بالليل والنهار ، وأظن وظنى لا يخيب  
إنك تبت إلى الله ورجعت من قريب ، وكففت عن أذى الجيران وعففت عن  
أكل الفيران .

ثم اعلم يا أسد الضيَّاون<sup>(١)</sup> : إن لى من هذه المؤنة عشر مخازن قد  
أعددتها لمثلك ، وأنا أقدمها لمنزلك ، وأدخرها لأجلك ، والقصد أن أكون أماناً  
من سطواتك ساكناً فى صدمات حركاتك ، وذلك إنما يعلم بتأكيد الإخاء وتأيد  
المحبة والولاء .

فلما رأى الهر هذا البرِّ ، أعجبتَه هذه النعم وأطربه هذا النغم ، وأقسم

(١) الضيَّاوى ، مفردهما ضيَّون : هو السنور الذكى .

طائعاً مختاراً ليس إكراهياً ولا إجباراً ؛ أنه لا يسلك مع الجرذان إلا طريق الأمان والإحسان ، وأنه لا ينوء إليه بقصد سوء بحيث تتأكد المحبة وتزداد الصداقة والصحة .

فرجع الجرذان وهو بهذه الحركة جذلان ، وصار كل يوم يأتي أبا غزوان بما التزم به من الغذاء والعشاء كل صباح وعشاء ؛ إلى أن صح القط واستوى وسلمت خلوات بدنه من الخو والخوا<sup>(١)</sup> ، وصارت المحبة تتعقد كل يوم عقداً مجدداً ، ويزداد كل منهما في الآخر محبة وتودداً .

وكان لهذا القط ديك وهو صاحب قديم نديم ، كلّ منهما يأنس بصاحبه ويحفظ خاطره ، بمراعاة جانبه ، فحصل للديك تعويق عن زيارة الصديق ، فغاب عنه مدة ، وكل منهما للفراق في شدة ، فلم يتفق لهما لقاء إلا وقد حصل للقط الشفاء ، فسأل الديك صاحبه بماذا صارت علته ذاهبة ، وذلك الهزال بأى شيء زال .

فأخبره بأحوال الجرذ أبي جوال ، وأنهى أمره من الأول إلى الآخر وبالغ في الشكر في الباطن والظاهر ، وإنه كان سبب حياته ونجاته من مخاليب مهلكاته ، وأنه لم يكن مثله في الأصحاب ، وقد صار أعز الأصدقاء والأحباب ، فغار الديك على الصاحب القديم واختشى أن يفسد ما بينهما المفسد الذميم ، فضحك مستغرباً وصفق بجناحيه متعجباً .

فقال له : مم تضحك ؟ فقال : من سلامة باطنك وانقيادك لمداهنك ، وحسن صنائعك مع المنافق مخادعك ، ومكارم أخلاقك مع ناقض لميثاقتك ، وإصغائك لهذا الخبيث بمشوه الكلام ومموه الحديث ، ومن يأمن لهذا البرم<sup>(٢)</sup> الواجب القتل في الجلّ والحرم ، المفسد الفاسق المؤذى المنافق الذى خدعك حتى أمن على نفسه ، واستطرق بذلك التمكن من أذاه ونجسه ، فتسلط فى الأذى كما يختار ، وانهمك فى الشر آمنة منك البوار ؛ كل ذلك بسببك

(١) الجوع .

(٢) الداهية اللئيم .

ومكتوب فى صحائف كتبك ، مع أنك لست بمشكور ولا بالخير مذكور ، وإن الذى شاع وذاع وملاً عنك الأسماح ؛ أنك ستحل عقده وتتكت عهده ، وتتقض الأيمان وتجازى بالسيئة الإحسان ، وإنه لم ير منك ما يسره وهو متوقع منك ما يضره ؛ وأعظم من هذا أنه أذى وحشر فنادى وبالشر بآدى فقال : إنه أحياك بعد الموت وردك بعد الفوت ؛ ولولا فضله عليك وبره الواصل إليك لمت هزلاً وجوعاً ولما عشت أسبوعاً ، ولكنه أشبع جوعك وجلب هجوعك ، واستنقذ من مخاليب المنية بعد ذهابك رجوعك ، فشفاك وعافاك ، وصفا لك وصافاك وكفاك المؤنة وكفاك ، وإنك كافيته مكافأة التماسح وجازيت حسناته بالسيئات القباح ، ولم يكن لإحسانه إليك ولا لما من به عليك سبب ولا علاقة؛ سوى طهارة نفس زكت أخلاقه ، ولا لإساعتك إليه سبب تتقم به عليه ، إلا ما أسداه من مكارم شيمه الواصلة إليك وفوائد نعمه السابغة عليك . وقد أشاع هذا كله فى الشوارع والحارات خصوصاً فى هذه المحلة .

ثم أقسم بمن عطفه عليك وساق فضله إليك ؛ أنه جعلك محتاجاً إلى نواله ، وأسبل عليك لباس صدقاته وأفضاله ؛ ليستوفين منك ما صنعته وليحفظن عليك ما عليه ضيئته ، وليوقعنك فى طوى<sup>(١)</sup> بلية يعجز عن خلاصك منها كل البرية ، فليرحن منك جنس الفار وليخلدن ذكر هذه القضية فى بطون الأسفار . وبالجملة : فهل سمعت أن جردانا صادق هرة ، أو اتفق بينهما مرافقة فى الدنيا ولو مرة ، ومناصحة القط والفار كمصادقة الماء والنار :

فَأَنْتَ كَوَاضِعٍ فِى الْمَاءِ جَمْرًا وَأَنْتَ كَمُودِعِ الرِّيحِ التُّرَابًا

فلما سمع القط هذا الكلام تألم باطنه بعض إيلام وما صدق ، ولكن ظن واشتغل خاطره لأمرٍ عنّ وتلهب ، واشتعل ومن يسمع يخل ، وقال للديك : جزاك الله عنى خيراً ، وما أكثر شفقتك طيراً ، ولكن من قال لك هذا المقال ؟

(١) طوى : وادى بالشام . معجم البلدان (٧٩٨٣) .

قال : أنت مُحَبٌ وعلى ومودة الجرذان مُكَبٌّ ، وقد قال سيد العرب والعجم صلى الله عليه وسلم : ((حبك للشئ يعمى ويصم))<sup>(١)</sup> . وقال الشاعر :

وعين الرضا عن كلِّ عَيْبٍ عَمِيَّةٌ      كما أنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي الْمَسَاوِيَا

ولقد غرك بلقيمات من الحرام والسحت المنغمس في الآثام ، وجعلها بمنزلة حبة الفخ فلا تشعر بها إلا وأنت في السلخ ، قد وقعت ولا رفيق ولا أخ هناك يعرف تحقيق هذا الكلام ، ولكن أنت الآن راقد مثل النيام ، والكلام ما يفيد ولا بد أن الله تعالى يجرى ما يريد ، وما في إشاعة الكلام طائل وكأنك أنت القائل :

ظَنَّ الْعَدُولُ بَأَنَّ عَذْلِي يَنْفَعُ      قَلَّ مَا تَشَأْ فَعَلَيَّْ أَنْ لَا أَسْمَعُ

وما قلت لك هذا الكلام إلا من فرط الشفقة والضرام ، ورعاية لحق ما وجب على من القيام ، وحفظاً للصدقة القديمة ، والمودة التي سحائبها ديمةٌ ، وأنا لو غششت كل أحد ما خطر لي أن أغشك ، وأنا لا استشهد على صدقي إلا يقينك الساكن عشك ، فرجح جانب صدق الديك كفاك الله شر من يؤذيك ، وقال القط في خاطره بعد ما أجال قداح ضمائره : هذا الديك من حين انفلقت عنه المبيضة ، وسرحت أنا وإياه من الصدقة في روضة ، ما وقفت له على كذب ولا سمعت عنه أنه لزور مرتكب ، مع أنه مؤذن أمين بين ظهور المسلمين وهو بالصدق قمين<sup>(٢)</sup> ، وما حملة على هذا إلا المحبة وقديم المودة والصحبة ، وهو أبعد من أن يكذب ويخدع وأى قصد له في أن يغش ويتصنع .

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود : كتاب الأدب (١١٦) والإمام أحمد في مسنده (١٩٤/٥) قال

الحافظ ابن حجر : الحديث حسن . انظر كشف الخفا (٣٤٣/١) .

(٢) جذير .

وتردد أبوهريرة في تيه الخيرة بين الديك والفريرة : ثم قال للديك :  
وقاك الله شر أعاديك فكيف أعرف صدق هذا الخبر وهل للدلالة على سوء  
طويته علامة تنتظر قال : نعم ورب الحرم ، علامة ذلك : أنه إذا دخل عليك  
ونظر إليك أن يكون منخفض الرأس مجتمع الأنفاس ، متوقفاً حلول نائبه ، أو  
نزول مصيبة صائبة ، أو شمول بلية غائبة ، ملتفتاً يميناً وشمالاً ، متخوفاً  
نكالا ووبالا طائفاً يتتقب خائفاً يترقب ، وذلك لأنه خائن ، والخائن خائف  
وهذا بائن .

وبينما هما في المحاورة والمناظرة والمشاورة ، يتجاذبان القيل والقال  
دخل المفسد أبو جوال ، وهو غافل عن هذه الأحوال فرأى أبا القيثان  
يخاطب أبا غزوان ، فخنس وقهقر وتخوف وتشور وهو غافل عما قضاه الله  
وقدر ، فاشمأز لرؤيته الديك وأبرأل<sup>(١)</sup> وانتغض<sup>(٢)</sup> واشتمعل<sup>(٣)</sup> ، فارتعد  
الجرذان من شيخ الديكة لما رأى منه هذه الحركة ، وانتفش وانزوى ،  
وتقبض وزوى ، وأشبه بغدادياً بلع الدوا ، ونظر يميناً وشمالاً كالطالب  
للمسفر مجالاً ، والقسط يراقب أحواله ويتميز حركاته وأفعاله فتحقق ما  
قاله أبو سليمان ، ونظر إلى الجرذان نظر الغضببان وهمز واكفهر<sup>(٤)</sup> ،  
ورقصت شواربه وازبار<sup>(٥)</sup> ، فاضطرب الجرذان ، وطلب الأمان فنسى  
السنور العهود والإيمان ونقض عرق العداوة القديمة والعدوان ، وطفر<sup>(٦)</sup> على  
الجرذان ، وأدخله في حيز خبر كان ، وأخلى منه الزمان والمكان .

(١) استعد للشجار .

(٢) قام للقتال .

(٣) ثار وعزم المضى .

(٤) أي عبس وجهه من شدة الغضب .

(٥) انتفش علامة على الغضب .

(٦) وثب .

وإنما أوردت هذا التنظير ، أيها الصاحب البصير ؛ لفائدتين جليلتين عظيمتين .

إحدهما : الإعلام بالتحقيق أن العدو العتيق لا يتأتى منه صديق .

ثانيهما : الإعلام بأن الواجب على الحكام أن لا يعجلوا بالانتقام ، فربما يورثهم الاستعجال الندامة في المآل ، في حالة لا يفيد العذل والتفنيد وعند ذلك لا يمكن التدارك ؛ بل إذا نُقل إليهم وأوردَ عليهم ما يثير غبار الغضب ويُحبي من نار السخط ، اللهم لا يفلتون زمام التثبت والتفكير من أنامل التأنى والتدبير ، خصوصاً السلاطين والملوك الأساطين ؛ فإن قدرتهم واسعة وأطراف أوامرهم شاسعة ، وأوهام<sup>(١)</sup> اختياراتهم طويلة ، ومرامى المراد لمرامهم منيعة ، وأذان الكين لأوامرهم سمعية ، وعين المكان لمراسيمهم مراقبة مطيعة ؛ فمهما أرادوا من النفع أوصلوا ، ومهما اختاروا من الضر فعلوا ، وذلك في كل حين ممسين أو مصبحين . ولذلك قالوا : القاضى لا يحكم حكماً إلا وهو راضى ، ولا يحكم وهو غضبان ، وهو مشغول خاطر ، ولا غرثان . فإذن وجدوا طريقاً الى الخير بادروا إليه ، وإذا قصدوا إيقاع شر توقفوا لديه . ولا يهملوه ؛ بل يسبروا غوره إلى أن يقفوا عليه . فربما يكون من مداخله عنده ، أو حاسد ، أو يتعاطى من له غرض فاسد . ثم اعلم يا ذا التبصرة والفضل والتذكرة ، أن من يعمل متقال ذرة خيراً يره .

ومن يعمل متقال ذرة شراً يره فلما رعا يسار هذا الحوار قال : ما أزهى هذه النصائح وأزكى ما لها من روائح ، وأنا أقبلها ولا يزال مرتشف سمعى مقبلها ، وعلى ذلك أعاهدك ، ومهما رأيت غيره أعاهدك فإنه للملك عين المصلحة وللملك زين ومسلحة ، وأيضاً فاشترط ما بدا لك مما يزين حالك ، ويصون مالك ومآلك .

(١) أحبال .

قال : وأريد أن تكون حرمتى موفرة ، وكلمتى معتبرة ومنزلتى على أقرانى مرتفعة ، ومكانتى فى الممالك متسعة ؛ بحيث تكون مزيتى ظاهرة ، ومرتبتي لأكفائى باهرة ، وكلامى فى محل الإصغاء والقبول متصلاً بالنجاح فى السؤال والمسئول .

فإن حسن العهد ، وحفظ الود ورعاية الحقوق ، القديمة السابقة ، والخدمة المستمرة المتلاحقة دليل على كمال المرواة والوفاء ونهاية الفتوة والصفاء ؛ لاسيما من الملوك والأكابر فى حق خدمهم الأصاغر . ففى الحقيقة رفعة الخادم ، وكمال حرمة من رفعة مخدومه وعزته ، وكل من رفع قدر خدمه وحافظ على حفظ حشمه ، ومنع جانبيهم ، ورعى حاضرهم وغائبهم ؛ إنما حفظ أطراف حشمته ، وراعى جانب عظمته وحرمة ، وكل كبير امتينَ خدامه ، وأذل جماعته وقوامه ، ولم ينزلهم منازلهم ، ولا عرف فضائلهم وساوى بأواخزهم أوائلهم ؛ فإنما أضع مكانة نفسه ، ولم يفرق فى الفكر بين يومه وغده وأمه ، وإذا لم يُصنع الملك لكلام الوزير ، واستقل بأوضاع ناصحه والمشير ، فابتذله وانتهزه واستقله واحتقره ؛ خصوصاً فى المجامع والمحافل بين العساكر والجحافل ؛ فأى حرمة تبقى له عند البقية من سائر الخدم والرعية ، وأى مرسوم وكلام يسمع له عند العوام . فيتكدر خاطره ، وتتغير سرانره ، فيدعوه ذلك والعياذ بالله إلى شق العصا إذ صار على باب مخدومه معلقاً كالحصى ، وقدره فى المكانة ، وقوله فى البلاغة صار كالزيف فى الصاغة والفسو فى الدباغة ، وناهيك أيها الخبير ما قالتها لأمها الزاغة<sup>(١)</sup> ، قال يسار : أخبرنى بذلك يا جيينة الأخبار .

[ ٥١ ] قال : ذُكرَ أن زاعغة فى بلاد مراغة . انثى : لها فرخه . انتشر لها بين الطيور صرخة ، وكانت ذات بهجة لطيفة ، وصفات ظريفة ، وتربت يتيمة

(١) الزاغة : طائر يشبه الغراب أصغر منه فى الحجم .

بالدلال . وجمعت بين فنون الكمال . فلما بلغت مبلغ الزواج خطبها من صنوف الطير الأزواج ، وترادفت عليها الخطاب ، ودخلوا على أمها فى ذلك من كل باب . فكانت تأبى عليهم ، ولا تلتفت إلى بذلهم ولا إليهم . إلى أن بلغ خبرها إلى بومة كريمة الوجه مشومة ، بينها وبين أم الزاغة صداقة قديمة . فخطبتها لابنها ، وأبانت للطير مزيد غبتها ، فاستشارت الأم ابنتها . وأظهرت فى ابن البومة رغبتها ، وقالت : أى ربية الخير قد رغب فيك أصناف الطير . فكنت أدافعهم ، وأسوّفُ بهم وأمانعهم ، وقد اشتهر صيتك بين الكبراء ، وخطبك منى الأمراء والوزراء ، وأنا على المطاولة ، والرد والمقاولة وقد استحبيبت منهم ، واختشيت غائلة ما يصدر عنهم ، ولم أفعل ذلك إلا رعاية لحالك ، وخوفاً من زوج ظالم بدرك غير عالم ، يستضعف جانبك ، ويكره أهلك وأقاربك ، ثم لا نقدر على مقاومته ، ونتعب فى مرافقته ومفارقته؛ لاسيما إن صار بينكما معاشقة . فيصير نكاحكما ككناح الدماشقة . كل يضرر السوء لصاحبه حالة المعانقة وكل يا أحسن طائر معنّى بما قال الشاعر:

رأيتُ الذى لا كلُّهُ أنتَ قَادرٌ      علَيِّهِ ولا عن بَعْضِهِ أنتَ صَابرٌ

ونعوذ بالله من اختلاف الوداد ، وأن يصير نكاح السنة ككناح أهل بغداد . فإن صادفتما فى محله مثلى أبى بكر الربانى ودله أو مثل الفرغانى وعلى أو جاره تشبه عيشة تلى . خرجتما من يدى وزدتما نكدى فكنت لهذه الأمور أخشى تقلبات الدهور ، وأرد خطاب الجمهور ، وقد خطبك يا كريمة ابن صاحبة قديمة ، وهى البوّة الفلانية ، وهى صاحبة هنية ، وأخلاقها رضية ، وهو شخص فقير حقير ضعيف الحال حقير ، نقلبه فى أيدينا كما نريد ، ونتصرف فيه تصرف الموالى فى العبيد ، لا فى الطير جنس يحبه بل كلهم يكرهه ويسبه ولا له ناصر علينا ، ولا جارح يدلى به إلينا ، فهو تحت طاعتك كما تحبين ، وفى ربة إرادتك كما تريدن ، لا كالحمام يتطوق بطوق

الفخر ، ولا كالهدهد يتتوج بتاج الكبر . فما رأيك في هذا الأمر .

فقال الزويغة مقالة بليغة : حَفَظْتَ شَيْئاً وَغَابَتْ عَنْكَ أَشْيَاءُ ، ما أصنع بزوج ممتن ، وبيغض الأجناس ممتن . مكسور مهجور يُنْطِيرُ<sup>(١)</sup> منه بين الطيور هذا يخطفه ، وهذا يلقيه ، وهذا ينقره ، وهذا ينثده ، وهذا يآثره ، وهذا يكسره ، وإذا لم يكن للزوج حرمة ، ولا تسمع له كلمة خصوصاً عند زوجته وأهل بيته وعترته . فأى قدر يكون له عند غيرها وأنى ينشر بالسعد جناح طيرها ، وقد قال رب السموات والأرض ، ومالك الطول والعرض ، والبسط والقبض ، والرفع والخفض ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٤] وقال من جعلهم قوامين وذواتنا منوعة ﴿وَالرِّجَالُ عَلَيْهِنَ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨] ومقدار المرأة بين جيرانها وأهلها ؛ إنما يعرف بقدر حرمة بعلمها وأنا كيف يبقى حالي ، وبالي وما على ومالي بين جيرانى وصواحبى ، وأهلى وأقاربى ، إذا كان زوجى ذليلاً مهيمناً . محتقراً بين الناس حزينا ، والله لا يكون لى بزوج ، ولو بلغ رأسه إلى الأوج ، ولا أمد إليه باعى ، ولا يرفع له فى مركب الزوجية شراعى .

وإنما أوردت هذا المثال يا شبه الغزال ؛ لأبين أنه إذا لم يكن لى فى دارك عِزَّةً ، ولا يرفع مكاتنى ومكانى نشاط وهزة ؛ فلا يرجونى الصديق الموافق ، ولا يخافنى العدو المنافق ، فيختل أمرى ، ويضيع فى غير حاصل عمرى ، وإذا ما أهمل مرسومى تعدى الوهم إلى مخدومى .

قال : يسار أبشر أيها الوزير المشفق والكبير ، المحقق والحكيم ، الماهر المدقق بالدرجة العلية ، والمرتبة السنية والكلمة المقبولة ، والوظيفة الفاضلة لا المفضولة ، ولكن أنا أيضاً لى عليك شروط تزين عقودها الملفات

(١) يتشاعم .

في المروط<sup>(١)</sup> هن لدار السعادة أبواب ، وللمترقى إلى درج السيادة أسباب ،  
ومثلك لا يدل على صواب ؛ وهى أن تتقلد العمل مبسوط الأمل بجميع ما  
قررته ، وتتعاطى ملازمة كل ما حررته من إقامة ناموس المملكة المبجلة ،  
ورعاية شرائط السلطنة المفضلة ، ومحافظة جانب مخدمك ، والإنهاء إلى  
مسامعه جميع ما فى معلومك وتقديم مصالحه على مصالحك ، ومعاملة  
رعيته بالجهد فى نصائحك ، وكفه عن المظالم ، والعدول به عن طريق  
المآثم ، والغيرة على دينه واعتقاده ويقينه أكثر من الغيرة على دنياه ، وفى  
الجملة : لا يكون الملك إلا لله . بحيث لا تكون من قبيل ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَالًا  
تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:٢] وإياك والرشا<sup>(٢)</sup> والبرطيل<sup>(٣)</sup> ، والدخول لعرض الدنيا  
فى الأباطيل ، وتوقّ ظلم الرعية للأعراض الدنيوية ، أو الأعراض الدنيوية ،  
واتق دعوة المظلوم ، وأن يصل سهاما إلى مولانا المخدم ، واعلم أننا إن  
بنينا أساس الأمور على قواعد الظلم والشرور . فنحن من الخاسرين ، ومن  
الذين ظلموا والله لا يحب الظالمين ﴿وَقَطِّعْ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ  
لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:٥٤] بل ابن الأمور على أساس التقوى ، فإنك  
بالتقوى تقوى ، وبرأويتها تروى . فمن تحلى بالقضايا العاطلة وتشتبث بأذيال  
الأمور الباطلة ، ولم يقصد وجه الله فى حركاته وسكناته ، وأدخل شوائب  
الرياء والسمعة فى أعماله وطاعاته ؛ لا يمشى له حال ، ولا يصلح نه مال  
ولا مال ، ويصيبه ما أصاب السائح الذى أدعى إخلاص العمل الصالح ثم  
شرع فى حركته ، وأخلص فظهرت آثار براءته . فلما قصد الأعراض الدنيوية  
فسد ظاهره بفساد النية . فسأل المشرقى عن حال ذلك الشقى .

[٥٢] قال : كان فى أقصى بلاد الصين طوائف غير ذى عقل رصين ،

(١) المروط ، مفردا مرط : كساء من الصوف أو الحرير .

(٢) إياك واعطاء الرشوة .

(٣) الرشوة .

أُنْبِتَ لَهُمْ فِي بَعْضِ الْجِبَالِ ، زَرَاةِ الْقَدْوَةِ ذُو الْجَلَالِ فِي رِيَاضِ النَّزَاهَةِ وَالْكَمَالِ ، شَجَرَةٌ ذَاتُ بَهْجَةٍ وَجَمَالٍ أَصْلُهَا فِي أَرْضِ الْمَلَاةِ ثَابِتٌ ، وَفِرْعُهَا فِي أَصْلِ الْمَحَاسِنِ نَابِتٌ ، وَغَصْنُهَا إِلَى سَمَاءِ الْعُلَى وَاصِلٌ ، وَوَرَقُهَا كَعُقُودِ الْجُمَانِ<sup>(١)</sup> بِالْبِهَاءِ مُتَوَاصِلٌ ، لَا سَمُومَ الصَّيْفِ<sup>(٢)</sup> يَزِيلُ زَهْرَتَهَا ، وَلَا عَوَاصِفَ الْخَرِيفِ تَذْهَبُ خَضْرَتَهَا ، وَلَا صَرَصَرَ الشِّتَاءِ<sup>(٣)</sup> يَعْزِي أَعْصَانَهَا ، وَلَا لَوَاقِحَ الرَّبِيعِ تَذْرِي أَفْنَانَهَا ؛ فَاعْجَبْ بِحَسَنَاتِ أَهْلِ تِلْكَ الدِّيَارِ وَأَشْرَبُوهَا إِشْرَابَ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خَوَارٌ ، ثُمَّ تَفَانُوا فِي حُبِّهَا وَتَهَالَكُوا عَلَى قَرِيبِهَا . فَعَبِدُوهَا كَمَا عَبَدُوهُ ، وَأَعْتَقِدُوهَا كَمَا اعْتَقَدُوهُ ، وَاسْتَوْلَى عَلَى عُقُولِهِمُ الشَّيْطَانُ ، وَصَارَ يَخَاطِبُهُمْ مِنَ الشَّجَرَةِ وَاحِدٌ مِنَ الْجَانِ ، فَزَادَهُمْ فِيهَا اعْتِقَادًا ، وَعَمَّهُمْ بِعِبَادَتِهَا كُفْرًا وَعِنَادًا .

فَقَدِمَ تِلْكَ الْبِلَادِ فَقِيرٌ مِنَ السَّائِحِينَ وَهُوَ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ ، فَلَمَّا رَأَى تِلْكَ الْحَالَةَ ؛ أَفْزَعَهُ ذَلِكَ وَهَالَهُ ، وَأَخَذَتْهُ غَيْرَةُ الْإِسْلَامِ ، وَغَضِبَتْهُ دَعْوَتُهُ إِلَى الْقِيَامِ ؛ فَأَخَذَ فَأَسَأَ وَقَصَدَهَا لِيَقْطَعَ سَاقَهَا وَعَضْدَهَا .

فَلَمَّا قَرَّبَ إِلَيْهَا ، وَأَرَادَ وَضْعَ الْفَاسِ عَلَيْهَا . سَمِعَ مِنْهَا صَوْتًا خَوْفِهِ ، وَعَنْ مَرَادِهِ أَوْقَفَهُ ، فَقَالَ : أَيُّهَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ وَالْقَادِمُ السَّائِحُ ، فِيمَ ذِي الْهَمِّ ، وَعِلَامِ هَذِهِ الْعِزْمَةِ الْمَهْمَةِ ، وَمَ قَصْدِكَ بِهَذِهِ الصَّدْمَةِ ، فَقَالَ : غَيْرَةُ اللَّهِ أَيُّهَا الْمُضِلُّ اللَّاهِي شَجَرَةٌ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ وَلَا يَغَارُ لِهَذَا الشَّأْنِ إِنْسَانٌ ؛ فَلَا قَطْعَنَكَ أَيُّهَا الشَّجَرَةُ الْمُضِلَّةُ ، وَلَا أَجْعَلَنَّكَ حَطْبًا وَمِثْلَهُ ، فَإِنَّكَ قَدْ أَضَلَلْتَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ ، وَفَعَلْتَ مَا لَمْ يَفْعَلْهُ الْوَسْوَاسُ الْخَنَاسُ ، وَإِنَّكَ لَا تَتَفَعَّلِينَ وَلَا تَضْرِبِينَ سِوَى إِنْكَ إِلَى النَّارِ تَجْرِينَ .

(١) اللؤلؤ .

(٢) حر الصيف .

(٣) شدة برد الشتاء .

فَقَالَتْ: أَيُّهَا الرَّجُلُ الزَّاهِدُ الصَّالِحُ الْعَابِدُ أَنَا مَا آذَيْتَكَ وَلَا ضَارَرْتُكَ ،  
وإن رأيت نفعتك وبررتك ، وحاشاك أن تؤذى من لا آذاك ، وأنا أعلم أيُّهَا  
الرجل الكبير أنك غريب وفقير ، وما أقدمك على هذا البأس ، إلا الغربة  
والإفلاس ؛ فكف عن هذا الأمر ، واطفئ نائرة هذا الجمر ، وارجع إلى  
منزلك ، واشتغل بطاعتك وعملك ، وأنا أوصلك كل نهار ديناراً ذهباً نضاراً  
كاملاً وافيةً معياراً ، يأتيك هيناً ميسراً كل صباح مبكراً إذا استيقظت من  
رقدتك تجده موضوعاً تحت وسادتك ، وهذا هو الأليق بحالك وأفرغ لخطرك  
وبالك وأخلص لك من ورطات المهالك ، وإذا أصلحت مع الله سريرتك  
وظهرت من أدناس الدنيا سرك وسريرتك ؛ فاترك الناس ولو كانوا جيرتك ،  
أو أهلك وعشيرتك ، وعليك بخويصة نفسك ، فإذا أنقذتها من الورطات  
فأمسك . وقد قال منزل القرآن ليحرسكم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ  
أَنْفُسُكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] .

فلما سمع بالدينار ألهاه الطمع والاعتزاز فبردت همته ، وضعفت في  
الله قوته ، وتركها ورجع ، وترك القيام وهجع . فلما أصبح الصباح وحاز  
بالصلاة الفلاح بادر إلى الفراش ، وطلب المعاش . فوجد الدينار كما ذكره  
الشیطان وأشار ؛ فالتفقه وابتهج ، وتحقق أنه فتح باب الفرج ، واستمر على  
ذلك أسبوعاً والذهب عنده مجموعاً .

ثم بعد ذلك قصد الفراش بسرور واهتمشاش<sup>(١)</sup> . فلم يجد شيئاً من الذهب  
فتحرق قلبه والتهب ، فأخذ الحنق والقلق وأخذ الفأس وانطلق ، فلما قرب من  
الشجرة نادته بألفاظ عكيرة : قف مكانك واذكر شانك وقل لي فيماذا جيت فلا  
حييت ولا حييت ، فقال : جئت لأقطعك ، ومن الأرض أقلعك ؛ خيرة على  
الدين وقياماً بحق رب العالمين .

(١) انبساط وسرور .

فَقَالَتْ : كَذِبْتَ ؛ إِنَّمَا غَرَّتْ وَسِيبتْ وَقَمَتْ وَقَعَدَتْ ، وَبِرَقَّتْ وَرَعَدَتْ ؛ لَفَقَدَكَ الذَّهَبَ الَّذِي عَنْكَ ذَهَبٌ ، وَإِنَّمَا كَانَتْ الْغِيْرَةَ الصَّحِيْحَةَ ، وَالْقَوْمَةَ الْمَلِيْحَةَ النَّاهِضَةَ النَّجِيْحَةَ الْقَوْمَةَ الْأَوْلَى ، فَإِنَّمَا كَانَتْ وَالْحَقُّ قَدْ تَجَلَّى ، فَلَوْ قَامَتِ الْخَلَائِقُ لِرَدِّكَ وَاجْتِهَدُوا فِي مَنَعِكَ وَصَدِّكَ لَمَا ظَفَرُوا بِكَ ، وَلَا قَامُوا بِحُرُوبِكَ . وَأَمَّا الْآنَ فَهَذِهِ الْغَضْبَةُ الْفَاجِرَةُ الْقَحْبَةُ<sup>(١)</sup> الَّتِي حَصَلَتْ بِوِاسْطَةِ عَدَمِ الدِّيْنَارِ ، فَهِيَ الَّتِي أَثَارَتْ مِنْكَ مَا أَثَارَ فَلَوْ ذَنُوتَ مِنْى خَطْوَةَ ، وَتَقَدَّمْتَ مِنْ مَقَامِكَ رِتْوَةً<sup>(٢)</sup> دَقَّقْتَ عُنُقَكَ ، وَشَقَّقْتَ زِقَّكَ<sup>(٣)</sup> ، وَقَدْ قَلَّتْ إِنِّى لَا أَضُرُّ وَلَا أَنْفَعُ وَلَا أَجْلِبُ وَلَا أَدْفَعُ ، فَأَمَّا الْمَنْفَعَةُ يَا صُلْعَمَةَ بِنَ قَلْمَعَةَ<sup>(٤)</sup> ، فَإِنَّكَ رَأَيْتَهَا فِي الدَّنَانِيرِ الَّتِي لَقَيْتَهَا فَتَقَرَّرَ النِّفْعُ يَا مَسْتَحَقَّ الصَّفْعِ . وَأَمَّا الْمَضْرَةُ فَعَسَى عَلَى الْمَنْفَعَةِ يَا أبا مُرَّةَ<sup>(٥)</sup> . فَإِنَّ الَّذِي لَهُ قَدْرَةٌ عَلَى الْمِبْرَةِ رُبَّمَا يَقْتَدِرُ عَلَى الْإِيْذَاءِ وَالْمَضْرَةِ ، وَإِنْ شُنَّتْ تَقَدَّمَ وَجَرِبَ لَتَعْلَمَ ، وَاخْبِرْ وَاسْتَبِرْ وَانظُرْ كَيْفَ أَنْتَرُ مِنْكَ الرَّأْسَ بِهَذَا الْفَأْسِ ، وَحَقَّقْ رِصْدَ أَنْ كَتَفَكَ حَمَلَتْ حَتَفَكَ ، فَبِيْهَتْ الرَّجُلُ وَتَحِيْرٌ وَخَافٌ وَخَارٌ وَقَهَقَرٌ ، وَانْقَطَعَ حَبْلُ رَجَائِهِ ، وَأَقْلَتْ يَتَلَفَّتْ إِلَى وِرَائِهِ .

وَإِنَّمَا ذَكَرْتُ هَذَا ؛ لِتَعْلَمَ أَيُّهَا الْوَزِيْرُ الْمَكْرَمُ ، أَنَّ كُلَّ أَمْرٍ لَا يَقْصُدُ بِهِ وَجْهَ اللَّهِ ، فَإِنَّ عِقَابَهُ النَّدْمَ وَإِنْ حَسُنَ أَوْ لَاهُ ، وَكُلُّ قَصْدٍ لَيْسَ لِمُغْرَضٍ صَالِحٍ فَإِنَّ شَجْرَةَ يَأْسِهِ لَا تَتَمْرُ إِلَّا الْفَضَائِحُ ، فَتَتْرَكَ الشُّرُوعَ فِيهِ أَوْلَى ، وَمَحْوُ صَوْرَتِهِ مِنْ لَوْحِ الضَّمِيْرِ أَجْلَى ، وَمَنْ لَمْ يَتْرَكَ مَا لَا يَعْنِيْهِ . وَقَعَ فِيْمَا لَا يَرْضِيْهِ ، وَحَلَّ بِهِ مِنَ الْفُضِيْحَةِ ، وَالْإِيْلَامِ مَا حَلَّ بِذَلِكَ الْمَفْسُدِ فِي مَدِيْنَةِ السَّلَامِ . فَسَأَلَ الزَّنِيْمَ الْمَشْرِقِيَّ الْبَصِيْرَ الْأَفْرِيْقِيَّ كَيْفَ تَلِكُ الْفُضِيْحَةُ . لِیَأْخُذَ مِنْهَا لِنَفْسِهِ النَّصِيْحَةَ .

(١) الْفَاجِرَةُ الْكَاذِبَةُ .

(٢) خَطْوَةٌ .

(٣) جِلْدَكَ .

(٤) صُلْعَمَةُ بِنَ قَلْمَعَةَ : مِثْلُ يُضْرَبُ لِمَنْ لَا يَعْرِفُ أَبَاهُ .

(٥) أَبُو مُرَّةَ : كُنْيَةُ الشَّيْطَانِ .

[٥٣] قال : كان في مدينة بغداد صانع حرير ، أستاذ خبير ، له جار سنى الجوار، وزوجة تخجل البدر عند الكمال والشمس قبل الزوال ، وذاك الجار الجانى ، يدعى ابن الفرغانى . ففى بعض مطاره لمح زوجة جاره ، فتعلق قلبه بها واشتعل من هواها نار أحشائه بهيوبها ، فأخذ يلهو بها إلى أن أفسدها ، وإلى الضلال أرشدها ، وكان الزوج مغرماً بها ، فوجد على حالها منبهاً ، فصار يراقبها من كلِّه ، ولا يغفل عنها لشدة شغفه ، ويجتهد فى كنفها عن الخيانة ، وأن تحفظ الغيب وتؤدى الأمانة .

ففى بعض الأوقات رأى بعض فى الطرقات صياداً ومعه طير ، قد أوثق رجله بسير ، فسأله عن طيره ، وإلى أين قصده فى سيره ، فقال : هذا من الجوارح السوانح البوارح يحاكي الصوادح ، ويباكي النوائح ، وفيه سر عجيب ، وأمر غريب ، وهو أنه إذا كان فى بيت ورأى فيه على صاحبه كيت وكيت أخبر زوجها خبره ، وقص عجره وبجره<sup>(١)</sup> ، وقد رغب فيه رئيس يشتريه فأنا ذاهب به إليه أقدمه لديه ، وأمتن به عليه ، فرغب فيه الحريرى واشتراه ، وأتى به إلى داره وقال لزوجته : أكرمى مثواه ، وأحسنى ماوآه ؛ فإنه يخبر بكل ما رآه ، وهو من أحسن صفاته ، وأعجب أموره وحكاياته ، ومهما فعلت زوجة الإنسان ذكره على وجهه كما كان .

فقلت : نحن بحمد الله فى بركة ، آمنون مما ينقل عنا من حركة ، فإن رأى شيئاً يهوله لا يكتمه بل يقوله ، فتركه الزوج وذهب ، فدخل الحريف<sup>(٢)</sup> الملتهب ، فرأى المرأة وحدها والطير عندها ، فأخذ فى المهارشة<sup>(٣)</sup> ، ومد يده للمناوشة<sup>(٤)</sup> ، فقلت : كف يدك واحفظ الذمام ، فإنه قد حصل علينا رقيب نمام ، فكف يدك يا حبيب لئلا نصاب ولا نصيب ، وتفكر فى قول الشاعر المصيب :

إذا ما خلّوت الدهر يوماً فلا تقل      خلّوت ولكن قل على رقيب

(١) خيويه .

(٢) الحريف : من مال عن الجادة وانحرف عن الطريق المستقيم .

(٣) الملاعبة .

(٤) المزاح .

فقال : وأين الرقيب يا ست الجار والحبيب ، قالت : هذا الطير ليس غير فإن له خواص عجيبة ، وفيه أشياء لطيفة نجبية ، منها أنه نام ، ومهما رآه أو سمع من الكلام ، فإنه يفيض عنه الختام ، ويذكره لصاحب البيت على التمام ، ففقهه بصوت عال ، وسخر منها وقال : صدق سيد المرسلين الذى قال : ((النساء ناقصات عقل ودين))<sup>(١)</sup> . ثم أقسم بحياتها وحسن ذاتها وصفاتها ، ليولج القضيبي فى الكتيب<sup>(٢)</sup> ، بمرأى من ذلك الرقيب ، حتى إذا فرغ من أمره يمسح فى منقاره رأس أيرده<sup>(٣)</sup> ليعلمها صحة ما أوهمها . ثم حاورها وغلبها وساروها وقلبها ، وحل الصدر بالتكة<sup>(٤)</sup> وتعلقت الحلقة بالسكة<sup>(٥)</sup> ، وامترجت الألف العربية بالكاف الكوفية ، والتهم زر الوردة التصيبية شفاه الوردة النسرينية ، واستمرا فى أخذوعطاء ، بلا غطاء ولا وطاء ، كأنهما أفواج الحجاج ، أو ثباج الأمواج<sup>(٦)</sup> ؛ فى شيل وحط وقبض وبسط وهرج ومرج ، ودخل وخرج ، واستمرا من نحو هذا التصريف فى بحث الرفع والجر ، ومن علم المطاردة والركوب فى صنعة الكر والفر ، ومن الزندقة والإلحاد فى عالم الحلول والاتحاد ؛ إلى أن دقق الإبريق العقيق فى قدح اللجين<sup>(٧)</sup> شراب الرحيق ، وقد أنشد الحريف هذا النظم الظريف وهو :

لو تنظر الرقبا وقد عانقته	والشَّمْعُ مشتعلٌ وبابى مقفلٌ
طورا أشاهدهُ وأرشفُ تارةً	وأضْمُهُ من بعد ما أتأملُ
وإذا تعشَى ذيلُ ثوبى بآنَ لى	من جيبه شىءٌ عليه المقْتَلُ

- (١) الحديث أخرجه البخارى : كتاب الحيض ، باب ترك الحائض الصوم (٣٠٤) .  
(٢) الكتيب : التل من الرمل ، والمعنى الوقوع بها أى الجماع .  
(٣) قضيبي الرجل .  
(٤) ما يُشد به السروال .  
(٥) كناية عن الجماع .  
(٦) ثباج : الموج العالى ، ومعنى ثباج الأمواج حركة الجماع .  
(٧) أى الوصول إلى تمام نشوة الجماع والانتهاه منه .

فلما سال الميزاب بما جرى ﴿وقضى زيد منها وطراً﴾ [الأحزاب: ٣٧] نهض ليبر قسمه حسبما ميزه وقسمه ، وأدنى من منقاره غرمولة<sup>(١)</sup> ، وكان للطائر مدة لم يتناول مأكوله ، فتصوره قطعة لحمة قدماها إليه طعمة ، فأنشبت مخالبه فيه فاستغاث بملء فيه ، وكاد أن يغمى عليه ، واستعان بحبيبة قلبه إليه ، فأقبلت المرأة كالحداة فأشار عليها أن تكشف عن ساقها ، وترى الطير بظرها وحمرة ، فربما يلتهى به ويترك آله ، فتكشفت وأدنته إليه وعولت في خلاص صاحبها عليه ، فوثب لشدة قرمه ، وتأثير الوجع وألمه ، ليلهم ذلك الفلهم<sup>(٢)</sup> ، فأنشبت مخالبه جله الأخرى في فليهم تلك البظرا ، فاشتبتكا وفي البلاء اشتركا ، وبينما هما في تعاضل الكلاب<sup>(٣)</sup> وإذا بالزوج قد دخل من الباب ، فرأهما على تلك الحال من الاشتباك والإعتزال ، ونقل الطير ما قال بالأفعال دون الأقوال ، فصح قوله وفعله ، وفعل معهما ما يجب فعله .

وإنما أوردت هذا البيان ؛ لأعلم جنس الحيوان أن الشروع فيما ليس فيه منفع ، يجب الإبعاد عنه والفرار منه ، وعدم الإصغاء إليه والتوجه والإقبال عليه ، ولهذا قال : النبي النبيه صلى الله عليه وسلم ((من حسن إسلام المرء ، تركه ما لا يعنيه))<sup>(٤)</sup> . قال المشرقي : ما بقى يا تقى ، إلا أن ترتقى ، فلقد طال البيان وضاع الزمان :

فانهض هُدَيْتَ إِلَى ما رُمْتَهُ عَجَلًا فَالدهر عاتٍ وللتأخير آفاتٍ

وكانت هذه المحاورة تحت ظل شجرة فيها وكر حمامة ، وكان لها

(١) إير الرجل .

(٢) أى فرج المرأة

(٣) أى ركب بعضها بعضاً .

(٤) الحديث أخرجه الترمذى : كتاب الزهد ، باب (١١) (٢٣١٧) وقال : هذا حديث

غريب . وابن ماجة كتاب الفتن ، باب كف اللسان فى الفتن (٣٩٧٦) .

بالبلد إقامة فى برج رجل من أهل الزعامة . ثم اختارت العزلة ، واحتسبت بها  
نعمة جزله . فاختارت هذا المقام ، ولها فيه عدة أعوام فسمعت جميع ما قالا  
من مبدئه إلى منتهاه . فلما وعت ما اتفقا عليه ، وتداعيا إليه ، أخذت تضرب  
أخماساً لأسداس ، وتتأمل فيما يتجلى من عرائس معانيه من القدم إلى الرأس ،  
وتجبل فى صور مبانیه قداح النظر ، وتلاحظ سيرة فحاويه بلوامح الفكر<sup>(١)</sup> ،  
وتجوز مذاهبه ، وتروز عواقبه<sup>(٢)</sup> ، وتقيس مداركه بمعارجيه ، وتميس فى  
مداخله ومخارجيه<sup>(٣)</sup> ؛ فأدى قائد فكرها ورائد نظرها إلى أنه ربما يكون لهما  
شان ، وعلو مكانة ومكان ، فإن محاوراتهما وما مر من مناظراتهما كانت  
منطوية على ذكاء وفطنة ، وتجارب وحكمة وعلو همة ، صادرة عن فكر  
مصيب ، ورأى له فى السداد أوفر نصيب ، ولم يبق لهما فى القدر إلا  
مساعدة القضاء والقدر ، وإذا كان الأمر كذلك ، فالأليق فى قطع هذه المسالك  
المبادرة إلى التعرف بهما وإعانتها والتقرب إلى خواطرهما ، ومساعدتهما  
على ما هما فيه ، ومساعدتهما بما تصل إليه اليد وتحويه ؛ لأنهما فى حالة  
الشدة وزمان الانفراد والوحدة ، محتاجان إلى المساعدة والمساعدة  
والمرافدة<sup>(٤)</sup> ، وفى مثل هذه الحالة تظهر الفضيلة ويتحملان المنة والجميلة ،  
وتقع مساعدتى أحسن موقع ، ويتميز لى عندهما أرفع موضع ، فإنه إذا علا  
شأنهما وارتفع بدون معاونتى قدرهما ومكانهما ، واجتمع عليهما الجنود وأقبل  
إليهما الوفود ، وكثرت الحفدة<sup>(٥)</sup> والأتباع ، وتكاثفت العساكر والأشياء ، فما  
يظهر لمن يقرب إليهما ويترامى لديهما إذ ذاك كبير فائدة ، ولا كثير عائدة ،

(١) أى بالتدبير والتفكر .

(٢) تنظر وتتأمل العواقب .

(٣) تتمهل فى مبادئه وعواقبه .

(٤) المعاونة

(٥) الخدم والأعوان .

ثم إنها توكلت على الرحمن وصدحت على الأغصان بقولها :

على الطائر الميمون والبشرِ والسَّعْدِ سَمَوْتَ إِلَى الْعَلْيَاءِ نَهْدًا عَلَى نَهْدِ<sup>(١)</sup>

ثم هبطت وبين أيديهما سقطت فأذكرت قول الرئيس<sup>(٢)</sup> هذا الشعر  
النفيس :

هَبَطْتَ إِلَيْكَ مِنَ الْمَحَلِّ الْأَرْقِعِ وَرَقَاءُ ذَاتِ تَعَزُّزٍ وَتَمْنَعِ

وقبلت الأرض ووقفت في مقام العرض ، ولزمت شرائط الحشمة ، وأدت مواجب الخدمة ، وهنأت نفسها والكون بسلطة الملك يسار ذات الصون، وقالت : إني لكما نعم العون ، وموطنى في هذه الشجرة ، وأنا لأوامركم مؤتمرة ، وقد وعيت ما قلتماه وما دار بينكما وذكرتماه ، ورأيتاه صادراً من مشكاة السعادة مشرقاً بأنوار السيادة ، سهامه نافذة في قلب الغرض ، وسيتعبد جواهر الرعابا بأدنى عرض ، فإن حسامه مطيق لفصل القصد ، وشأنه سيبلغ أعلى اليمن والسعد ، وها قد جئت مبادرة واردة منهل الطاعة وصادرة ، فأمرنا لأمتل ، وانظرا لأحتفل ، وتحكما لأطيع ، وتكلما فإني سميع ، فإن أشرتما فالقصد قاف ، وإن استشرتما فالرأى كاف ، وإن خبرتما فالحزم واف ، وإن استنهضتما فالعزم شاف ، وإن استخدمتما فالعبد خادم صاف مصاف .

فلما رأيا من الحمامة هذه الكرامة تبسم الزنيم وتفاعل ، وأشرق وجهه وتهلل وتيمن بطلعه الورقا ، وعلم أن أمرهما يرقى ، وقال يسار : هذا من علامات اليسار ، وجبر الانكسار والخروج إلى اليمين من اليسار ، وعنوان السعود وحصول النحيح والمقصود ، فإن مسبب الأسباب العزيز الوهاب

(١) نهذاً على نهدي : كريم على كريم .

(٢) الشيخ الرئيس : أبو علي بن سينا ، تقدم ترجمته .

تبارك وتعالى وجل جلالاً ، هو مسهل الصعاب ومفتح الأبواب ، وإذا أراد أمراً هياً أسبابه وفتح على الضعيف طاقته وبابه ، ووسع رحابه وسدد إلى مرامى المرام لراميه نشابه<sup>(١)</sup> ، وحصول مثل هذا الصاحب الصادق والرفيق الموافق والمعين المصدق ؛ أدل دليل على أن الله الجليل يبسر هذا المطلوب ويظهر هذا النجاح المحجوب . ثم أنهما استشارا الحمامة فى كيفية نيل الزعامة والشروع فى هذا الأمر ، والتوصل إلى دعوة زيد وعمرو ، وطريقة اشتهاره ، وتعاطى أسباب انتشاره .

فقال : أنا من جنس الطير مشهورة بينهم بالخير ولهم إلى سكون ، وعلى مناصحتى اعتماد وركون . فالصواب فى فتح هذا الباب دعوة الجمهور من الطيور ، وأنا به زعيم وفى الرسالة حكيم ، فإن اقتضى رأى الرفيع توجهت ودعوت الجميع بعد التخيير والتشهير بين الكبير منهم والصغير ، أن أبا الجراء السلطان ، وأبا الجداء الوزير ، وقد وقع الاتفاق فى الآفاق على هذا الوفاق ، فليبتج سائر الطيور بهذا الفرح والسرور ، وليقرأ على رؤس الجمهور هذا المقال المنشور ، وليبادر إلى الخدمة بالحضور ولا يتخلف أحد من أمر ومأمور ، والحذر الحذر من المخالفة وعدم الانقياد والمؤالفة ، فقد طاب الوقت ، وراق وزال المقت ، والشقاق والمسارعة فى أقرب زمان ليأخذوا لأنفسهم الأمان ، ولا يركبوا من التعويق سوى متن مسافة الطريق .

فأعجب الملك والوزير من الهديل هذا الهديز<sup>(٢)</sup> ، فكتب بذلك بطاقة ، وحملتها الحمامة بأحكم وثاقه ، ثم أخذت إلى الجو ، ووقيت من الجوارح السوء ، ثم هبطت إلى مجمع الطير ، وهو نادى الندى والخير ، فرأت منها خلقاً كثيراً ، وجمعاً غزيراً ، فسلمت سلام المشتاق ، وعانقت عناق العشاق ،

(١) النبله تستخدم فى رمى السهام .

(٢) الهدير : صوت الحمام ، والمعن كلامه .

فترحبوا بمقدمها، وسألوا عن معرب أحوالها ومعجمها ، وقدموا موائد الضيافة ، وأظهر السرور واللطافة ، فبثتهم كثرة الأشواق ، وما عانته من ألم الفراق وقد حرضها شدة الشوق ، وساقها إليهم أشد سوق ، وبعثها أيضاً باعث ، وهو من أحسن الوقائع وأيمن الحوادث، وذلك أن شخصاً من أصلاء بنى سلاق<sup>(١)</sup> الحاكم على بنى زغار وبنى براق تولى سلطنة السباع ، ومالكية الذئاب والضباع ، مضافاً إلى ذلك الحكم على الطيور والقيام بسياسة أمور الجمهور ، وأقام له فى ذلك وزيراً كافياً ناصحاً مشيراً ؛ يدعى أبا زمنة المشرقى من نسل تكابل الأرتقى وهو من الفحول ، وكباش الوعول ، وقد أرسلوني إلى الجماعة يأمرونهم بالدخول فى رياض الطاعة ؛ ليحصل لهم الرعى والرعاية ، والرفاهية والحماية ، ويأمنوا صيد الكائد وكيد الصائد .

ثم شرعت تبث للكبير والصغير ما شاهدت من مخايل الملك والوزير ، وحسن شمائلهما ويمن خصائلهما ، وما هما عليه ونسبا إليه من الشجاعة والدين ، والعقل المتين ، والفضل المبين ، والقناعة والعفة والمجد الذى لا يُدرك وَصْفَهُ ، وأن الملك المعلوم قد عف عن تناول اللحوم ، وقد قنع بما يسد الرمق من حشيش النبات والورق ، وقد تكفل برفع الظلم ، وردع الظالم ، وإجراء مراسم العدل وإحياء مواسم الفضل ، فإن أنابوا وأجابوا ؛ وريحوا وأصابوا وطالوا وطابوا ، وإن أبوا وصبوا واهتزوا للمخالفة وربوا ، ثم كَسَّهْم<sup>(٢)</sup> الدمار وَأَرْكَسَهُمْ<sup>(٣)</sup> ، فلا يلوموا إلا أنفسهم .

فصدقوها من أول وهلة والرائد لا يكذب أهله ؛ لأنهم كانوا بها واتقين، ولكلامها فى الحوادث مصدقين ، فما وسعهم إلا الطاعة ، والتوجه إلى خدمة

(١) بنو سلاق : الكلاب .

(٢) كَسَّى الشئ أى دقه حتى صبره كالسويق .

(٣) أى عكس حالهم .

الملك فى تلك الساعة ، وبعدهما تبادر بالتصديق طاروا بالفرح ودخلوا الطريق، واستصحبوا من الخدام والتقدم ما يصلح للمخدوم من الخادم ، فلما قربت الديار ودنوا من ولاية الملك يسار تقدمت الحمامة وسبقت، وأخبرت الملك والوزير بما فتقت ورتقت<sup>(١)</sup> ، فاستبشروا بما تقدم وبادر الوزير لملاقاة المقدم ، فلتقاهم بالاحترام والتوقير ، وأكرم الكبير منهم والصغير ، ومشى معهم بالإكرام والحرمة ، وأوقف كلا منهم فى مقام الخدمة ، وحين استقر بهم المقام افتتح الوزير الكلام ، فأثنى على الله تعالى وضاعف التحية على نبيه وآله ، ثم امتدح الملك الذكى بثناء يخجل المسك الزكى ، وذكر بعد ذلك ما يتعلق بسياسة الممالك ، وأن الله مَنَّ بالملك عليه ، وساق سلطنة الوحش والطيور إليه ، وذكر مقام كل من الطيور وما وظيفته بين أولئك الجمهور ، فأطاع الكل وتابعوا وعلى ما اقترحه عليهم بايعوا وأنشدوا فأرشدوا :

وَنَحْنُ أَتَيْنَا طَائِعِينَ وَلَمْ نَكُنْ  
عُصَاةَ فَرْمٍ غَيْرِ الطَّيْرِ عَسَاكِرًا

ولما انقضى الوطر من قضايا الطير ، أخذوا فى استدعاء جموع الغير من الوحوش الكواسر ، والبهائم الجواسر ، والهوام النواشر ، والجوارح النواسر ، وأرسلوا فى تلك الجماعة الحمامة ، وقلدوها فى طوق الزعامة، فتوجهت نحو الوحش ، وإلى كل فارح من الصيد وجحش ، وكانوا بذلك قد سمعوا وللمشاورة فيه قد اجتمعوا ، فبلغت الحمامة الرسالة وأظهرت ما فيها من بسالة ، وكان آخر ما وقع عليه الاتفاق ، الوفاق ، وعدم النفاق وقصد الأرتفاق والتوجه إلى خدمة الملك يسار صحبة انرفاق ، وقالوا : لاشك أن الكلب بالوفاء مشهور ، وبحسن الرعاية والحراسة مذكور ، ويقدر أن يرعانا من الإنسان ، ويحمينا من السباع ومؤذيات الحيوان ، وأوصافه مذكورة فى الكتاب وناهيك بفضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب .

(١) أى ما كان منها من كلام .

فتقدم خزز<sup>(١)</sup> من بين تلك البرز<sup>(٢)</sup>؛ يدعى رئيس الأرائب محبب إلى الأقراب والأجانب، وهو مشهور بالحصافة، موصوف بالذكاء والظرافة، والمعرفة التامة والتجربة المفيدة العامة، بعيد الفكرة فى العواقب، سديد الرأى حازم مراقب.

وقال: يا معشر الأصحاب وأولى الأبصار والألباب، كيف خفى عليكم ولم يتضح لديكم عاقبة هذه الأمور، وما فيها من عكوس وشرور، وهل يصلح للرياسة وإقامة السلطنة والسياسة أهل النذالة والخساسة المتصف بالفقدارة والنجاسة، أو ما علمتم أن من أفحش السباب الشتم بأخس من الكلاب، أو ما سمعتم فى كلام مالك: أزمة القلب فى حق من عامله بالسلب والسلب فمثله كمثل الكلب. أو ما قال صاحب الشرع فى حق ما ولغ فيه الكلب بالسبع، ثم التعفير بالتراب، وهو مذهب كثير من الأصحاب، وأن لا يطهر بالدباغة منه الإهاب<sup>(٣)</sup>، 'أصلى نقى، ولا وصف نقى، ولا نسب طاهر، ولا حسب ظاهر، ولا وجه زاهر، ولا شكل باهر، فإن كنتم نائمين انتبهوا، وأعرضوا عما قصدتم إليه وانتهوا، فلعن الله زماناً صار فيه التيس وزيراً، والكلب سلطاناً، ولقد أرشد من أنشد:

لقد جَارَ صَرَفُ الدَّهْرِ فِي كُلِّ جَانِبٍ      مَنِ الأَرْضِ اسْتَوَلَّتْ عَلَيْنَا الأَرَادِلُ  
هل المَسْنُخُ إِلا أَن تَرى العُرْفَ مُنْكَرًا      أو الخَسْفُ إِلا حين تَعْلُو الأَسَاقِلُ

فتصدى الهديل للجواب، وقال: لا شك ولا ارتياب أن المستحق للسلطنة الإمام العادل والشخص الكامل الفاضل، ولا يقدر فى هذا الفضل دناءة الأصل، فقد قال القيوم الحى ﴿تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [آل عمران: ٢٧] وكل من اتصف بالهمة العلية، والأوصاف السنية،

(١) الخزز: ذكر الأرائب.

(٢) الجمع.

(٣) الجلد الذى لم يدبغ.

ومكارم الأخلاق والشيم ، وأنتشر بها صيته بين الأمم ؛ يستحق أن يرأس بين العرب والعجم ، وأما الأنساب ففي نص الكتاب قال : من بقوله يهتدى المهتدون ﴿فَإِذَا نَفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] .

وقال الشاعر :

كن ابن من شئتَ واكتسبَ أدبا      فسوفَ يُغنيك ذا عن النسبِ  
إنَّ الفتى من يقول ها أنا ذا      ليس الفتى من يقول كان أبى

وقال أيضاً :

لعمرك ما الإنسان إلا ابن يومه      على ما تجلّى يومه لا ابن أمسه  
وما الفخرُ بالعظم الرميم وإنما      فحارُ الذى يبغى الفخارَ بنفسه

وأما الأوصاف ، فلا شك ولا خلاف فى أن الكلاب فضلت على كثير ممن لبس الثياب وما ذاك إلا لأوصاف اختصتها ، وآثار اقتفتها واقتصتها ، وهى مشهورة وعن الكلاب مسطورة ، ومن جملة محاسنهم مأثورة ، وأما الأوصاف الذميمة فيمكن صيرورتها مستقيمة ؛ وذلك بحسن التأديب والتربية والتهديب والتمرين والتشذيب<sup>(١)</sup> ، حتى يصيرنا به مدية<sup>(٢)</sup> وهذا ليس فيه مرية ، ويجتزى بالفاكهة والبطيخ عن اللحم السليخ ، وبالخبز الشعير عن أكل لحم الحمير ، وناهيك يا أبا وثَّاب ما قيل فى الكلاب ولا بسى الثياب :

وما ضرَّ أهلَ الكهف إيمانَ كلبهم      ولكنهم زادوا يقيناً على مُذَى  
وماذا أفادَ العلمُ بِلِعام<sup>(٣)</sup> وهو من      بنى آدمَ لما إلى الأرضِ أخلدَا

(١) أى يبعد ويسقط عنه من الأخلاق الذميمة .

(٢) أى شفرة وسيف يقطع به عن نفسه من ذم من أخلاق .

(٣) اللعم : اللعاب .

وهذا السلطان ؛ قد عاهد الرحمن أن لا يمزق حيوان ، ولا يذوق لحمان ، وأن يقنع بالكفاف<sup>(١)</sup> ويسلك طريق العفاف ، وماذا لك لعجز ينسب إليه، ولا لوهن طراً عليه ؛ بل سمت همته عن ذلك ترفعاً ، وسلك طريق الملوك فى إحياءهما ومعاليتها تطبعاً وبضدها اتين الأشياء ، فإن أحببتم كان لكم الحظ الأوفر ، وإن امتنعتم فقد أعذر من أنذر ، وبلغ من حذر ، وما قصر من بصر ، والعامل من يتبصر عيوبه ويسلك من الخلق الجميل دروبه ، وقد قيل لأمير النحل ذاك الأسد الفحل كرم الله وجهه ، وجعل له إلى الرضوان أحسن وجهه يا أمير المؤمنين وابن عم سيد المرسلين ممن تعلمت الأدب ؟

قال : من قليل الأدب ؛ يعنى إذا رأيت فى أحد خلقاً ذميماً أو وصفاً فسداً بادرت إلى افتقاد نفسى ، وتأملت فى حدسى وحسى هل أنا محلى بذلك الوصف أم لا ، فإن لم يكن اجتهدت أن لا يكون ، وإن كان أبعد عنه عرضى وأصون ، وحسبك يا ذا الرتبة العالية استتكاف اللص العاقل من قول تلك الزانية . فقالت الخرز للحمامة : أخبرينى بذلك الإستكاف يا ذات الكرامة

[٥٤] قالت الحمامة : ذكر رواية الأخبار عن شاطر من الشطار ، قد بلغ فى الشطارة واللصوصية غاية المهارد ، يسرق الوهم من خاطر ، والرائحة من الطيب العاطر ، والنوم من أجفان الوسنان<sup>(٢)</sup> ، واللامظة<sup>(٣)</sup> من أسنان الجيعان ، ويأتى على كوامن الغيوب فضلاً عن خزائن الجيوب ، ويلف الرخيص والغالى والوضيع والعالى ، وقد أعجز المقدم والوالى .

ففى بعض الأوقات قصد جهة من الجهات ، فبينما هو فى المناهضة

(١) أقل القليل .

(٢) من اشتد نعاسه .

(٣) ما يبقى فى الفم بعد الأكل .

والمناهزة غشيه الوالى مع العسس والجلوزة ، ومعهم امرأة بغى قد خرجت عن الصراط السوى ، وهم يضربونها ، وعلى أفضح حالة يسحبونها، وهى تستصرخ المسلمين وتستغيث أئمة الدين . فلما أحسن اللص بيم نكب عن دربهم وولاهم عطفه ، وانزوى فى عطفه وانتظر حتى يمروا ، فسمع المرأة وهم بها قد أضروا ، وهى تصيح بلسان فصيح ، وتقول : يا أهل الإسلام ، وأمة خير الأنام ؛ أنجدونى وارحمونى واسعدونى، لا سرقت ولا نكبت ، ولا اختلست ولا سلبت ، ولا طمعت فى مال أحد ولا نبيت ، ولا وقتت لأحد فى درب ، وإنما استنفق من حاصل دار الضرب ، وذلك ملكى وحوزى ، وثمره لوزى وجوزى ، بإشارة سهام الحاضى الملوّزة ، من قسى حواجب بالجمال متوّزة<sup>(١)</sup> ، وسفارة نظام أفاضى المعززة المشبة باب طريقها درراً فى العقيق والرقيق مغززة ، فمالى على أحد ثقل ولاطمعت فى مال أحد فيحصل له منى ملل .

فلما سمع قاصد الحرام هذا الكلام ؛ أفاق خاطره وراق وتبته لقبح صنعته ، وإن الزوانى تأنف من حرفته ، وتستكف مما هو مفتخر بفضيلته . فقال : لعن الله فعلاً تنتقصه الخواطى ، وتباً وسحقاً لمتعاطيه من متعاطى . ثم عاهد الله التواب ، ورجع إليه عن صنعة الحرام وتاب .

وإنما أوردت هذد المناقب يا شيخ الأرانب ؛ لتعلم أن العاقل من يتصفح جرائد أعماله ، ويتأمل صحائف حركاته وأحواله ، وأن هذا الملك صفى شراب صفاته من كدورات الهوى براووق<sup>(٢)</sup> المراقبة ، ونقى رياض ذاته من شوك الأخلاق الذميمة بمنكاش المعاتبه بقدر طاقته وإمكانه ، وهو مثابر على ذلك فى غالب أزمائه ﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] وليس لك أن تعترض بأن النفس لا تغير طبيعيا ، وليس

(١) خنيظة ثقيلة الشعر .

(٢) أى مصفاة بالملاحظة والمراقبة .

الأكمه كالأرمد<sup>(١)</sup> ، ولا السطیح<sup>(٢)</sup> كالمقعد ، ولا سبحان كباقل<sup>(٣)</sup> ، ولا العاقل كالمتعامل ، وليس التكلل فی العينين كالكحل ، وتخرج یا مسكين بواقعة السلطان محمود بن سبكتكين<sup>(٤)</sup> مع وزيره حسن الميمندى<sup>(٥)</sup> ؛ بسبب القضية الواقعة لابن الجندى ، فسأل أبو عكرشة أبا عكرمة عن هذه الواقعة ليتبين من التمثيل بواقعه .

[٥٥] فقال : إن السلطان محمود ذا طابع المسعود ، الذى فتح بلاد الهند ، جرى بينه وبين وزيره مباحثة ، وقع فيها عن دقيق العلوم مناقشه ؛ فى أن الطباع هل تقبل التغيير ، أم لا تستحيل عما جبلها عليه الفاطر الخبير .  
فقال الوزير : نعم تقبل التغيير بواسطة التأديب وحسن التشذيب ، والتهديب وقد شاهدنا الطباع من الوحوش والسباع ، بواسطة التعليم تركت الخلق الذميم ، واكتسبت الوصف ، المستقيم ، فجرى ان هذا الإمكان أحرى أن يوجد فى جنس الإنسان .

فقال السلطان المظفر : لا تتحول الطباع ولا تتغير ، ولا يمكن صرفها عما جبلت عليه ولا يتصور ، قال من ليس فى كلامه اشتباه ﴿فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾ [الروم: ٣٠] .

- 
- (١) أى ليس الأعمى كالمصاب بالرمد ، وهو مرض عارض .
  - (٢) البطء القيام لضعف أو مرض .
  - (٣) سبحان وائل ؛ خطيب فصيح ضرب به المثل ، وباقل الأيدى ؛ جاهل ضرب به المثل فى البلاهة .
  - (٤) محمود بن سبكتكين ؛ لقبه يمس الدولة ، ثالث ملوك الغزنويين ، وأشهرهم ، فتح بخارى وما وراء النهر . شجع الآداب والفنون وفى عهده نبغ الفردوس صاحب الشاهنامه توفى سنة (١٠٣٠هـ) .
  - (٥) حسن الميمندى ؛ وزير السلطان محمود . أكرم العلماء واستبدل بالفارسية العربية ، توفى (١٠٣٢هـ) .

وقال القائل : وتأبى الطباع على النقال .

واستمر هذا الكلام بينهما عدة أيام ، إلى أن ركب السلطان وقصد السيران والوزير فى ركابه بين خدمه وأصحابه . فرأيا من بعد شاباً من أولاد أحد الجنود ، وهو جالس على فرع شجرة يابس يريد قطعه لما عدم نفعه ، وقد جعل ظهره إلى طرف الفرع ، وهو عمال بالمنشار فى أصله للقطع ، فتأمل السلطان والوزير فى هيئة ذلك الطيبى الغرير ، ثم قال السلطان للوزير بين الأعيان : وطبع هذا أيضاً داخل فى الإمكان ، وهو يقبل التغيير والتعليم ، ويمكن استحالته بالتأديب والتفهم ، فلم يحر الوزير جواباً لا خطأ ولا صواباً ، ثم أشار إلى بعض خَوَلِهِ<sup>(١)</sup> ، أن يذهب بذلك الشاب إلى منزله ، فلما نزل من الركوب أحضر ذلك الشاب المرعوب الغافل المحبوب ، ثم طلب له مؤدياً حاذقاً مهذباً وأمره أن يجتهد فى تعليمه ، ويبالغ فى تأديبه وتقوميه ، ويوقفه من العلوم على دقائقها ، ويسلك به إلى خفايا طرقها وطرائقها ، فاشتغل بتربيته ليلاً ونهاراً ، وبذل مجهوده فى ذلك سرّاً وجهاراً ، إلى أن برع فى أنواع العلوم وضبطها من طريقى المنطوق والمفهوم ، ولما فرغ من العلوم أدناها وأنهاها ، من مبتدئها إلى منتهاها ، شرع به فى علم إدريس<sup>(٢)</sup> وهو علم النجوم النفيس ، واستطرد منه إلى علم الرمل المنير ، وتوصل به إلى أن توصل إلى إخراج الضمير ، فأتقن هذه العلوم ؛ لاسيما إخراج الضمير الموهوم .

فلما أتقن ذلك وسلك فيه أدق المسالك ، أحسن الوزير إليه وأستصحبه إلى الملك ودخل به عليه ، فقبل الأرض وأدى من شرائط الخدمة الناقلة والفرص ، وقال للسلطان محمود : إن هذا هو ذاك الشاب المعهود ، وقد برع

(١) خدمه .

(٢) إشارة إلى نسبة علم النجوم إلى إدريس عليه السلام ، وهذا مما لا يصح فيه شيء .

فى العلوم ووصل إلى استخراج الضمير المكتوم ، وقد بدلت بلادته بالذكاء وصار فؤاده كابن ذكاء ، فإن اقتضت الآراء السلطانية سبْرْتَهُ ، واحتبرت فيه بعدما اختبرته ، فأدخل السلطان يده فى كفه ونزع خاتمته من بصمه<sup>(١)</sup> ، وأطبق يده عليه لِيَسِيرَ منتهى علمه ، وينظر ما قاله الوزير فى كيفية هذا التبديل والتغيير ، ثم أخرج يده من كفه وقال : ليظهر نتائج علمه ، ليخبرنا بما فى كَفِّي وعن حواس العيون مخفى ، فتقدم الشاب ورفع الأصرلاب<sup>(٢)</sup> ، ووضع أوضاع الحساب وخط ذلك النقى أشكال لحيان والنقى ، وسائر الأوضاع من الطريق والاجتماع ، ثم نظر وسبر وعبس وبسر وقدر وافتكر ، وقال : دل الشكل والله أعلم أن ما حواد الكف المكرم ، شىء من المعادن محفوف بسودد أو سواد بانن ، وهو فى أفضل الأشكال لأنه مستدير ، وفى أحسن الألوان لأنه مستدير ، وفى دائرته قطر ومركز ، وفى وسطه تقب لمغرز وهو ثقيل ، إما فى الثمن أو فى التحميل ، ثم تأمل بعد الوقوف فى أن هذا الموصوف ماذا يكون ، فقال : كان والله أعلم فردة طاحون<sup>(٣)</sup> ، فضحك السلطان الكبير وخجل لذلك الوزير ، ثم قال السلطان : أبى الله ، وله السبحان ، أن يكون باقل كسبحان :

إذا كَانَ الطِيَاغَ طِيَاغَ سَوْءٍ      فليس بناوِغَ أَدَبُ الأَدْيِيبِ

وإنما أوردت هذه المسائل ؛ لئلا يعترض قائل ، ويستدل بمثل هذا الدليل على أن الطبايع لا تقبل التغيير والتحويل ؛ بل الطبايع تتغير ومن ذا الذى يا عزلا يتغير ، فسبحان من لا يحول ولا يزول ؛ الذى وضع عالم الكون على الانتقال والحلول ، وكلّ لجلال عظمتة مُخْبِتٌ<sup>(٤)</sup> ، يحق ما أراد

(١) إصبعه .

(٢) آلة ، تستخدم فى حساب النجوم والفلك .

(٣) حجر مستدير من حجرى انطحن .

(٤) منكسر ذليل خاشع .

ويثبت ، ويمحو ما يشاء ويثبت ، ومذهب أهل الثبات فى المحو والإثبات : أن الكافر قبل الإسلام كافر عند الملك العلام ، وبعد ما انخرط فى سلك المؤمنين صار مؤمناً عند رب العالمين ، وعلى هذا التقدير والتقرير أيها الفاضل الكبير والعالم النحرير<sup>(١)</sup> ، فالملك يسار نظر بعين الاعتبار ، وتتصل من رذائل الأوصاف ، وتخلق بأخلاق الأشراف من التلبس بالعدل والإنصاف ، ولولا نيته الصالحة ما صارت صفته فى المبايعة رابحة ، ولا كانت كفة فضله راجحة ، ولا زايه النكد ولا أطاعه أحد ، والأعمال بالنيات وعلى مقدار النيات العظيمة ، وجنس هذا الملك فى الأوصاف المتباينة مشترك ، فإنه قد جمع بين خصائص الحيوان حتى كأنه سبع بهيمة إنسان كما قيل :

جمع الكلب فى حَلَاهُ صِفَاتٍ      فَهُوَ سَبْعٌ بِهَيْمَةٍ إِنْسَانُ  
وكما قيل أيضاً :

يكاد إذا ما أَبْصَرَ الصَيْفَ مَقْبِلاً      يَكَلِّمُهُ مِنْ حَبِّهِ وَهُوَ أَعْجَمُ

وأنا يا مولاي أعرض عليكم هذا الرأى ، وهو شاهد عدل وحكيم فصل ، وهو أن يقع الاتفاق على واحد منكم من خلص الرفاق ، مَنْ تَحَقَّقْتُمْ حسن آرائه وصدقته فى أنبيائه وسمحة دينه ورسانة عقله ويقينه ، فانطلق فى ركابه إلى حضرة الملك وجنابه ، فيكتحل بأنوار طلوعه ، ويشم منه ميامن رؤيته ويطلع جميل صفاته ليسكن إلى فضيل حركاته ، وينتقل من عليم اليقين إلى عين اليقين ، فيزول باليقين الشك ويظهر خلاصة الذهب بالحك ، ثم يأخذ لكم العهد والميثاق بما يقع عليه الاتفاق ، وما ترضونه وتروونه من الصواب ، ويرد عليكم بذلك الجواب ، فإن وافق قصدكم توكلون عليه عهدكم ، وتتوجهون بقلوب مطمئنة وخواطر فى حصول المرام مستكنة ، وإلا فترون رأيكم فيما عليكم ومالكم .

(١) الماهر العالم .

فاستصوبوا هذا الرأي واسترضوه ، واستعذبوا لطيف معناه واستحسنوه وانتدبوا لهذا الأمر الخطير من يصلح أن يكون عند الملوك السفير ، فوجد طبيباً طيب العناصر قد عقدت على غزارة فضله الخناصر<sup>(١)</sup> من أعقل الجماعة وأذكاهما وأحسنها رأياً وأدهاها ، فقلدوه الزعامة وأرسلوه مع الحمامة ، على أن يجتمع بالملك يسار ويعاهده على ما يقع عليه الاختيار ، ثم يسمع أقواله ويشاهد أفعاله ويميز أحواله ، ثم يرد عليهم الجواب فيميزوا ما فيه من خطأ وصواب ، فيبينوا عليه ويرجعوا إليه .

فتوجه الطيبي والحمامة مستصحبين الأمن والسلامة ، فلما قربت الديار سبقت الحمامة إلى خدمة الملك يسار ، وأخبرته بصورة الأخبار ، وأن الطيبي في العقب مقبل بما يحبه الملك ويجب ، فأمر الملك الوزير أن يتلقى الطيبي الغرير مع جمع الطير الكثير . فتقدم الوزير وقال : أسأل مولانا الملك المفضل إن صدر من هذا القاصد خطاب أن يشار إلى برد الجواب ، فإن ذلك أعلى للحرمة وأدنى للحشمة ، وأقوى لناموس الملك والرياسة ، وأزهى لطاوس البسوق والسياسة ، فإن كان ذلك الجواب متحلياً جيده بعقود الصواب ، كانت سعادة الملك الملهمة في خدم الملك من تصدى للأمر وأبرمه ، فإن خرج عن طريق الجادة ، فلا ينسب إلى الملك تلك المادة ، بل يتلقاه الملك بكرمه ، ويكون الخطأ منسوباً إلى خدمه فأجابه إلى ما سأل ، وتقدم الوزير للملاقة مع سائر الخول ، فتلقوا الطيبي بالترحاب ، وفتحوا في وجهه للكرامة أوسع باب ، ومشوا معه حتى وصل إلى حضرة ، وشاهد تلك الحشمة والنضرة ، فقبل الأرض ووقف وعرف مقدار الملك واعترف ، وأدى الرسالة وبين للملك ما فيها من رقة وجلالة .

فقابله الملك بما يليق بحشمته وأجلسه بالقرب من حضرته ، وخاطبه بما أذهب دهشته ، وأنسه بملاطفات جلت وحشته ، وسأله عن خلف وراءه واستقصى في التفحص أحواله وأنبأه ، فبلغ عبوديتهم وطاعتهم ، وأن

(١) الخناصر ؛ مفرداً خنصر : وهو الأصبع الصغير في الكف ، وهو مثل يضرب لما يتفق عليه .

الإخلاص والطاعة شملت جماعتهم ، وفتح فم الدعاء بلسان ذلق<sup>(١)</sup> وخطاب  
 طلق ، وكلام غير معقد ولا قلق ، وأطال فى الدعاء وأطنب<sup>(٢)</sup> فى الشكر  
 والثناء ، وسأل شمول المراحم وكَفَّ كَفَّ المتعدى والمزاحم ، فإنهم انبسطوا  
 وانشرحوا وابتهجوا باستيلاء هذا الملك وفرحوا ، وشكروا الله هذه النعمة ،  
 وأنى يفون بشروط العبودية والخدمة ، ثم سأل أخذ الميثاق وتأكيد العهد  
 بالإيثاق ، بالأمان والاطمئنان ، لمن وراءه من الوحوش والغزلان ، فأعطاهم  
 الأمان وشملهم بالإحسان ، على أن لا يراق لهم دم ، ولا يهتك لهم حَرَمَ ،  
 وأنهم يرعون حيث شاؤا ويسرحون حيث ذهبوا وجاءوا ، وأن الملك يسار  
 حاكم سلوق ، وزغار ، خليفة براق ، وكوباك والتتار ، قد عاهد الملك الجبار  
 أن لا يتعرض لوحش القفار ، ولا لأحد من أجناس الأطيوار حتى ولا لحيطان  
 البحار ، ولا يريق لهم دماً ، ولا يقصد لهم أذى ولا ألماً ، ويرعى جانبهم  
 ويقضى مآربهم ، ويحفظ شاهدهم وغائبهم ، ويمنعهم من مناوءهم ، ولا يسلط  
 عليهم من يؤذيهم ماداموا تحت طاعتي وفى جوارى وذمتى ، فقبلت الغزاة  
 بشفاه العبودية خد الجدالة .

وقالت : هذا كان المأمول وجل القصد من الصدقات والمسئول ، والذى  
 جىء لأجله فقد حصل من صدقات الملك وفضله ، ولكن العلم العالى محيط  
 بأن وحوش البسيط أقوام ضعاف ليس بينهم ائتلاف ، وهم طوائف كثير  
 الاختلاف ، أجناس متفرقة وأنواع متمزقة ، ليسوا كقطائع الغنم مجتمعين ولا  
 كجشأر الخيل ممتنعين ، ولا بعضهم لبعض متبعين ، ثم لم تزل العداوة بينهم  
 قائمة ، وعيون الصلح والاتفاق عنهم نائمة ، لا يضبطهم ديوان ولا يحصرهم  
 حسيان ، ولا يمنعهم من التعدى سلطان ؛ القوى يكسر الضعيف ويمزقه ،  
 والشاكي يستطيل على الأعزل ويغرقه ، ولأجل هذا المعنى لا يمكن  
 اجتماعهم فى مَغْنَى<sup>(٣)</sup> بل البعض فى قلل الجبال<sup>(٤)</sup> متوطن ، والبعض فى

(١) فصيح .

(٢) أى أطال حتى وفاه حقه .

(٣) المغنى ؛ جمعها مغان : المنزل .

(٤) مرتفعات الجبال .

سرب التلال متحصن ، والبعض متشبه بذيل الكهوف والمغارات ، والبعض فى الآجام والآكام خوف الغارات ، وكل يخاف حلول البلاء قد اتخذ لذلك القاصعاء والنافاء<sup>(١)</sup> ، واستعد بفنون الكيد خوفاً من جوارح الصيد ، وإذا كان الأمر كذلك فاجتماعنا متعسر ، وحفظنا فى الملك غير متيسر ؛ فلا بد من ترتيب قاعدة تعم منها جميع الوحوش الفائدة ، ويشمل أمنها غائب الملك وشاهده ، وإلا فالحاضر آمن ، وقلب الغائب غير مطمئن ولا ساكن ، فليفتكر للزعية فى ضابطه تكون الحرمة فيها للقريب والنائى باسطه ، فالتفت الملك للوزير وقال : أجب هذا السفير .

فقال الزنيم : يا أحسن ريم ، هذه الأفكار من قصور الأنظار وعدم التأمل والاستبصار ، وإلا فإن السلطان فى كل مكان كلمته خليا ، ووجوده كالشمس فى الدنيا ، فكما أن الشمس إذا استوت ، وعلى سرير كبد السماء احتوت عم فيض شعاعها الجبال والآكام والتلال والآجام ، وانتشر على البحر واشتهر على الفاجر والبرّ . فربت الأزهار والأثمار وشبت مشاعل الكلا فى القفار ، وطبخت الغلال وفواكه الأشجار ، وصبغت فى كوامن المعادن جواهر الأحجار كما قيل :

كالشمس فى كبد السماء محلها      وشعاعها فى سائر الآفاق

كذلك الملك العظيم ، إذا انتشر صيت عظمته وعدله فى سائر الأقاليم ، شمل فضله الشريف والرضيع ، وبلغ جود جوده الدنى والرفيع ، وردع عدله الطائع والعاصى ، ووسع نواله الدانى والقاصى ، وأنه كالغمام الصيّب على الربيع الخصيب ، والذئمة المطبقة<sup>(٢)</sup> ، والمزنة المغدقة<sup>(٣)</sup> إذا انتشرت فى

(١) حجر اليربوع .

(٢) السماء الممطرة .

(٣) السحابة المحملة بالماء .

الآفاق وصارت لام عهد عاهدهما للاستغراق ، فروت الحضيض والبقاع  
وعمت الوهاد والتلال والبقاع ، وخاطبها ظمأن الرياض وعطشان الغياض :

أمطر على سحاب جودك مرة وانظر إلى برحمة لا أغرق

هذا ومتى انتشر فى الأطراف أنكم التجأت إلى هذه الأكناف ، وتطرز  
بشمول الصدقات السلطانية من ملابس طاعتكم الطراف والأطراف ، منعت  
العواطف الملوكية ، والخواطر الشريفة السلطانية عوادى المعادى ، وكفت  
أكف المصادم والمصادى ، فلا يجترئ أحد على التعرض لكم ولا يخطر ببال  
مخالف أن يقطع سبلكم .

قال الرسول : الأمر كما يقول مولانا الأمير وما أحسن هذا التقرير ،  
ولكن مع المراحم السنطانية وصدقات العواطف الملوكية ، وحسن الطوية  
وإحسان النية ، فلا بد للسياسة وضبط الرياسة ، وقواعد الملك فى الحراسة  
من ضابط يبنى عليه الملك لأمره أساسه ، لا يتميز به كبير دون صغير ، ولا  
يختص برعايته جليل غير حقير ، فإن من أحسن أوصاف الملوك والأكابر أن  
لا يغفلوا عن تفقد أحوال الصعاليك والأصاغر ، ولا يقتصروا فى ذلك على  
نوع دون جنس ، كما يفعله لغلبة الهوى بعض حكام الإنس ، مع أنهم  
مسئولون عن جليلها وحقيرها ، ومحاسبون على كبيرها وصغيرها ، وفى  
شأنهم قد قال من فى ضبط حركاتهم وملكاتهم استقصاها ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ  
فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ  
صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩] وقد تنبه لهذا الفعل الرجيج أيها  
الوزير النصيح والمنطق الفصيح أنوشروان وهو من الكفار ، واشتهر عنه  
قضية الحمار ، فسأل الوزير بيان هذا التقرير .

[٥٦] فقال الريم : بلغنا أيها الكريم أن أنوشروان بالغ في نشر العدل والإحسان ، ومعاملة الرعية كبيراً وصغيراً بالسوية ، وبذل في ذلك جهده واستنهض لمساعدته وكده وكده<sup>(١)</sup> ، واختشى أن يمنع المتظلم الفقير الأبواب بسبب حاجب أو كبير لغرض أو عرض ، أو ارتشاء من قى قلبه مرض . فيمشى مدلس البراطيل<sup>(٢)</sup> من خوف الأباطيل ، ويضيع بحث صارخ الحق في أوقات التعطيل ، فأداه قائد اجتهاده وانتهى به رائد مراده ، إلى أن يعقد في طاق مبيته ، ومجتمع خاطره عن تشيته ، من محاذى السرير حبل من الحرير ، ويربط طرفه الأدنى في حلقة الباب حيث لا حاجب ولا بواب ، وهو مكان مجتمع الجمهور ، ولا يمنع أحد فيه من الوقوف والمرور ، وأن يشد فيه أجراس من خالص الذهب لا النحاس ؛ بحيث إنه إذا حرك الحبل صوتت الأجراس صوتاً أخرج الطبل ، ثم أمر منادياً أن يرفع صوتاً عالياً : بأن من كان شاكياً فعليه بتحريك ذلك الحبل ليقع الظالم في الكبل<sup>(٣)</sup> أو ينتصر المظلوم من بعد ومن قبل . فاشتهرت هذه العادة ، ونال بها في الدنيا السعادة ، وعظم صيته ، وخدمت عفاريتَه ، وانتصفت صفاريتَه<sup>(٤)</sup> ، ففي الظهائر عند قائلة الهواجر<sup>(٥)</sup> وأنوشروان في مبيته قد طاب اضطربت الحبل والأجراس أشد اضطراب ، ففر أنوشروان مذعوراً وتصور المحرك مظلوماً مقهوراً ، فابتدر بطلبه لينظر في ظلمه وسببه فتبادروا إلى إحضاره واستكشاف أخباره ، وإذا هو حمار جرب جتب ، جسمه من الجرب خرب ، ومتمن ظهره من الحكمة نقب ، وقد هد عمارة عمره هادم الهرم ، وألهب حشيش حشاشته من

(١) وكده وكده : قصد قصده .

(٢) صاحب الرشوة .

(٣) القيد .

(٤) الصفاريت ، مفردا الصفريت والفقير .

(٥) الهواجر ، مفردا الهاجر : نصف النهار في القيظ أو من عند زوال الشمس إلى

العصر ؛ لأن الناس يستكنون في بيوتهم كأنهم قد تهاجروا .

الجوع ماضى الضرم ، يحملة له صاحبه ما لا يطيقه ، ويقطع عنه قوته  
وعليقه ، يؤذيه ولا يداويه ويدور به ولا يداريه ، فطلب مالكة وعتبه ، ثم  
زجره وضربه ، ثم أمر بالنداء فى الأسواق وامتد ذلك حتى بلغ الآفاق وعم  
الضواحي والرزداق<sup>(١)</sup> : أن يسلك بما ملكت اليمين الإرفاق ، ولا يقطر عليها  
فى الإنفاق ، وكل من عنده دابة قد استعملها فى صباها واستوفى فى خدمته  
قواها يراعى حقوقها إذا كبرت ، ولا يضيع ما قدمت بما أخرت ، وصك وجه  
ذلك الرجل صكاً ، وكتب عليه بفرض حماره صكاً .

وإنما ذكرت هذا المثال ؛ فى معرض ما يقال من : أن عدل السلطان  
خير من خصب الزمان ، وأيضاً فإن قصد الملك إذا كان صالحاً كان أمره فى  
جميع الأزمان ناجحاً ، وسخر الله له من يرشده إلى قصده، ويعينه على أمور  
شعائره ، ويحى ذكره من بعده ، وتدرُّ على يده سحائب البركات ويجرى منها  
على خير قصده أبحر الخيرات ، وحفظ كل من إليه ينتسب ، ورزقه كل ذلك  
من حيث لا يحتسب ، وحاصل هذه المقدمة أن المسئول من الصدقات  
المعظمة ؛ أنه إذا ترامى على أبواب عدلها شاكى أو تعلق بأسباب معدلتها  
متظلم بأكى ، تتصدى هى بنفسها لكشف ظلامته ، ولا تترك الغير فى فصلها  
لإقامته ، وأن الفقير من جماعتنا ، والضعيف من أهل طاعتنا إذا مسنت  
الحاجة به إلى بث شكوى أو رفع بلوى ، يتقدم إلى شكواه بلا واسطة ليأمن  
فى أمره المغالطة ، ويصادف مقسطة لا قاسطة<sup>(٢)</sup> ويتساوى فى كل من  
مشرب العدل والإنصاف ومراعى الفضل والألطف ؛ الظباء ، والأسود ،  
والذئب والعتود<sup>(٣)</sup> ، والعقاب ، والعصفور ، والحمام ، والصقور ، ولا يتقدم  
فى الدعاوى من حيث التساوى ؛ الوجيه على الجاهل ولا النبيه على الخامل ،  
ولا الكبير على الصغير ولا الجليل على الحقير .

(١) القرى وما يحيط بها .

(٢) أى من يعدل لا من يظلم .

(٣) الخيل .

فإن اقتضت الآراء العالية تولية عامل في ناحية ، فليكن ممن له شفقة تامة ورحمة في أمر الرعية عامة ، ويعرف ذلك بمن جربته العلوم الكريمة وتحققت أن نيته في رعاية الرعية مستقيمة ، قد صارت له الشفقة مَلَكة وكل من العدل والإنصاف قد ملكه ، ولا تولى أحد الغرض ؛ أو من فى قلبه من أذى المساكين مرض ، وإن الطبيعة إذا اعتادت عادة والمُسْجِية<sup>(١)</sup> إذا جعلت لها بعض الأوصاف قلادة ، سواء كان ذلك مذموماً أو محموداً مقبولاً عند العقل والشرع أو مردوداً ، فإنها تبرزه فى غالب الأوقات ، ولا تتخلف عن ملابسته فى أكثر الحالات :

العين تُعرف من عيني محدثها      إن كان من حزبها أو من أعاديها

وكل قضية لا يساعدها القلب فمنتياها على العكس والقلب ونظيرها يا رئيس المداراة ؛ قضية من زوجته أمه وهو كاره فسأل الوزير من السفير تقرير هذا النظر .

[٥٧] فقال : كان شاب من العُراب ، قصدت أمه تأمله فزوجته بإمرأة أرملة ، ولم يكن له احتياج ولا رغبة فى الزواج ، واختار التخلّى للصلاة على مذهب الإمام الشافعى رحمه الله ، ولكن فرّ من العقوق ، وكتب على نفسه الحقوق ، فلما عَقِدَت الوليمة وصممت العزيمة وجمعت النساء والرجال أرسلت أمه إلى جار لهم قوال أستاذ فى صنعته ماهر فى حرفته ، فدعته إلى الجمع ليبتهج بحسن غنائه السمع ، فيشغل الوقت ويذهب المقت ، ويحصل للحُضور النشاط والسرور فتخلف وأبى وعن الحضور نبا ، فسئل عن تصلفه<sup>(٢)</sup> وسبب تخلفه .

(١) الفطرة .

(٢) امتناعه مع عدم اكتراث لمن حضر .

فقال : بلغنى أن الزوج الخاطب غير طالب ولا راغب ، وإذا كان كذلك فلا يُغنى الغناء إلا العناء ، ولا يؤثر فى القلوب والأسماع ؛ بل تنفر عند سماعه الطبايع فكل شىء لا يصدر عن رغبة القلب ، فإن إيجابه لا يفيد إلا السبب ، فيضحك على القائم والقاعد ، ويسخر منى الصادر والوارد ، ويروح تغزلى فى البارد .

وإنما ذكرت ذلك ؛ لأعرض على أراء المالك أنه إذا أولج أمر الرعية إلى أحد من الخاصكية<sup>(١)</sup> ينظر إلى شفقته ، ويسبر وفور مرحمته ، ثم يوليه عليهم ويتقدم بالطاعة إليهم ، فيستقيم إذ ذاك فعلهم وفعله ، ويظهر فى حركاته وسكناته عدله ، وليس "عدل فى القضايا تساويها ولا إجراؤها على نسق واحد يحويها ، بل معرفة مقاديرها وبينان تفريرها فى المبادئ وتحزيرها ، ثم إجراؤها على مقتضى مدلولها ، ورد فروع كل مسألة إلى أصولها ، ووضع الأشياء فى محلها وإيصال الحقوق إلى أهلها ، ومعرفة منازل أربابها وأوضاع أصحابها ومراتب طلابها ، فمن لم يحقق هذه الأمور أوضاع مصالح الجمهور ، فأعطى غير المحق ما لا يستحق ومنع الحق عن المستحق ، وقد قيل يا أبا السعود : إن حقيقة الجود إعطاء ما ينبغى لمن ينبغى ، وإلا كان كالباذر<sup>(٢)</sup> فى السباخ<sup>(٣)</sup> وأشبهه فى أمره أجير الطبايع الذى لم يعرف معنى العدل فقصده فوق فى الجدل ، فسأل الغزال شيخ الأوعال عن هذا المثال .

[٥٨] فقال : كان عند بعض الأشياخ من الطبايعين أجير طباخ ، له رغبة منهمة على معرفة طبخ الأطعمة ، وكيفية ترتيبها وصنعة تركيبها ،

(١) خاصة الملك والسلطان .

(٢) من يبذر الأرض ، الفلاح .

(٣) الأرض البوار .

وكان مغرماً بذلك يسلك فيه كل المسالك ، ويردُّ فيه الموارد ويتبع كل صادر ووارد ، ففي بعض الآثناء وقف على طيبب من الأطباء ، فسمعه يقول: إن أصلاً من الأصول العدل والتسوية بين الأطعمة والأغذية ، والعقاقير والأدوية، فمن لم يستعمل الاستواء في درجات الغذاء والداو ؛ ضل عمله وغوى ، وأصل هذا المزاج ؛ ولا ينكره إلا ذو لجاج فإن العناصر الأربعة منها المضرة والمنفعة ، وقد تولد منها السوداء والبلغم والصفراء والدم<sup>(١)</sup> ، فمتى اعتدلت هذه المتولدات ؛ صحت الأبدان واللذات ، ومتى عن الاعتدال عدلت أمراضت وقتلت .

وكذلك النير<sup>(٢)</sup> الأعظم والكوكب المضىء في العالم ، إذا حل في مركز الاعتدال استقام للعالم الحال ، وطاب الزمان واعتدل ، وذلك عند نزوله في برج الحمل ، فتصير ذلك الولهان أن المقصود التسوية في الأوزان، فأنصرف وهو فرحان وقصد طعام الزبرجاج<sup>(٣)</sup> وعبى من مفرداته ما يحتاج ، ثم إنه ساوى بين أوزانها وقصد العدل في ميزانها ، وخلط كعقله أخلاطها، ووضعها في قدر وساطها ، فخاب عمله في عدله وبان نقصه في فضله .

فلما رعى الملك والوزير ما سلكه السفير في نظام هذا التقرير شكرا له مساعيه ، وأخصبا في الإكرام والإعزاز مراعيه ، وقالوا : جزاك الله خيراً عن شفقتك ، وحسن صنيعك لمرسليك ورفقتك ، فمثلك من يصلح للسفارة بين الملوك ، وتولى أمور الرعية من الغنى والصلوك ، فإنك ناصح لمن فوقك شفيق على من دونك .

(١) السوداء ، والبلغم ، والصفراء ، والدم : الأخلاط الأربعة داخل جسم الإنسان ، في عرف الأقدمين .

(٢) الكوكب المضىء .

(٣) الجيد الجميل من كل شيء .

ثم قال الوزير : إن هذا الملك الكبير مقاصده العظيمة أن تكون الأمور مستقيمة ، وأن يصلح العباد والبلاد ، ويطمئن المستفيد والمستفاد ، فاحتفظ أيها السفير المنير الضمير بما سمعت ورأيت وشاهدت ووعيت ، وأجعله من عنوان أبنائك ومقدمات أفعالك وآرائك ، وأبلغه من يحفك<sup>(١)</sup> من أمامك وورائك ، ومهما وصلت إليه قدرتك وأحاطت به يدك وكلمتك ، من إيلاغ الخير إلى مسامع الوحش والطير عن هذا الملك وأوصافه ، وتطلعه إلى مراقى السَّير والإحسان واستشرافه ، وما تسكن به الخواطر وتطمئن به الضمائر ، وتقر به العيون بالسرور وتستقر به القلوب فى الصدور ، فلا تأل فيه جهداً ، وأوسع فيه جداً ، ولا تنه فى إنهائه حداً فإن المجال ؛ واسع وميدان المقال شاسع ، وقد أذن لك فيه وإن أخفيته فى نفسك فالله مبديه .

ثم كتب له بذلك مراسيم عن ثغر الأمانى مباسيم ، وأفيض عليه خلع الكرامة وأضيف إليه الحمامة ، ورجع إلى أهله مغمور بفضله مسروراً بقوله مشكوراً بفعله ، فائزاً بالمطلوب ظافراً بكل مرغوب ، فارغ البال طيب الحال ، فاتصل بأهل دياره وهم فى انتظاره ، فبادروه بالسلام وقابلوه بالاستلام ، وقالوا : ما وراءك يا عصام ، فبلغ الجواب بأرشق عبارة وأليق خطاب ، وذكر لهم ما رأى وسمع ووعى ، فانتشرت هذه الأخبار حتى ملأت الأقطار ، وتسامع بها وحوش القفار ، وفاح بطيب نشرها الأزهار ، فكان جميع البرّ معطار .

ثم اجتمع رؤساء الوحوش والبهائم ، وعرفاء الصوادح والبواغم<sup>(٢)</sup> ، وكل ساكن فى القفار من سائم وحائم ، وأرسل كل إلى أمته رسوله يدعوه إلى ما يحصل سولها وسوله<sup>(٣)</sup> ، فلبت كل أمة دعوة رسولها ، وأقبلت

(١) أى من أحاطوا بك واهتموا .

(٢) البواغم ، مفردها الباغمة : الظبية .

(٣) أى سؤلها وسؤلته .

لاستماع المراسيم وقبولها ، فاجتمعوا فى رياض مرج أخضر ، وحلقوا لاستماع المراسيم حول المنبر ، وأطرقوا وسكتوا واستمعوا وأنصتوا ، وتناول المرسوم الصادر من الباغم ، وصعد على الغصن الناعم مطوق الحمام، وابتداء باسم الكريم الغفور ، وقرأ على رؤوس الأشهاد مضمون المنشور ، ودعاهم إلى الطاعة والدخول فى سنن السنة والجماعة ، وأنهم لا يتأخرون عن الحضور بعد الاللاع على مضمون المنشور ، فإنه فرمان أمان لكل من أجناس الحيوان ، ولم يبق مقالا لمتخلف ، ولا مجالا لمتأخر ومُسوّف كما قيل :

فَمَنْ جَاءَنَا طَوْعاً أَمِنَّا بِمَجْدِهِ وَمَنْ يَأْبَ لَا يَعْتَبِ عَلَيْنَا فِعَالَنَا

إلى آخر الرسالة مع ما تحمله الرسول من مشافهة ومقالة ، ومن ملاطفات تشرح الصدر وتستنزل البدر ، وتوضح ما للملك من جلالة وقدر ، فتلقى الكل هذا الكلام بأذان القبول والإكرام ، واتفقوا على التآهب والمسير والاحتفال بالكبير والصغير ، وأخذوا فى تعبئة التّقادّم والخدم ، وفرضوا ذلك على ما لكل من طوائف وحشم ، وتصدعوا عن هذا المرسوم على أن يجتمعوا فى يوم معلوم ، ثم أعد كلّ عتاده ، وأكمل خدمته وزاده ، واجتمعوا لذلك اليوم الموعود وتوجهوا إلى الخدمة فى الطالع المسعود .

ولما دخلوا الدرب وضربوا فى الأرض أيمن ضرب ، توجهت الحمامة بالبطاقة بهذه البشارة والطلاقة ، فانتشر هذا الخبر وملا البدو والحضر ، فلما وصل الطائر دقت البشائر وسرّت الأهل والعشائر ، ثم إن الملك دعا الوزير وقال : اعلم أيها الناصح الخبير والبحر النحرير ، أن الوحوش واصله إلى منزلك ، وبخفها وحافرها نازلة فى ساحلك ، وإن راية سلطاننا بعون الله بالنصر نشرت ، ووحوش الجنود والعساكر بحمد الله تعالى على بساط بسيط الطاعة حُثِرَت ، وفى هذه الجيوش أصناف الوحوش ، وطوائف السباع،

وأنواع الذناب والضباع ، وفيهم الفراعل<sup>(١)</sup> والثعالب ، والعساير<sup>(٢)</sup> والأرانب ، ولا شك أن هيبة الملك صادعة ، وحرمة السلطنة بأسطة فارعة ، وحضرة السلطان ذات جلال وإن كانت جامعة لصفى الجلال والكمال ، وما عند كل أحد مسكة للملاحاة وإثبات جنان عند المشاهدة للملك إذا رآه ، فمن لم يكن بيننا وبينه اجتماع فقد وقرت هيبتنا فى قلبه على السماع ، ومن تصدينا له فى ميادين الصيد وأفلت بعد معاناة الكدر والكيد قد رأيت على العيان ، ولا يحتاج فى معرفة قوة سلطاننا إلى ترجمان ، وعلى كل تقدير فمشاهدتنا على غالبهم أمر عسير ، لأنه ربما يتذكر منهم متذكر أو يتفكر منهم متفكر ، واقعة أو سابقة وقعت انجرح فيها من نصل أنيابنا مفاصل عراقبيه ، أو تعلق بها من أشعاره وأوباره مشاطة جلايبه ، ومن لم ينجح منا ضباحه<sup>(٣)</sup> ، ولم يكن سلاحه من كلاب مخاليننا إلا سلاحه ، فبمجرد ما يقع نظره علينا ، أو تمثل بالوقوف لدينا ، يرجف فواده وينفض من عيبة كرشه زاده ، فينكص من الخوف على عقبيه ولا يعرف أمره من حوالبه ، فيتبعونه ويحصل الفشل ويقع الخباط والخلل ، فيبهم ما أوضحناه ويفسد أضعاف ما أصلحناه ، وينهدم من أول الأمر إلى آخره ما بنيناه ، ويتعوج من مستقيم السلطنة ما سويناه ، فلا يحصل من عزة المملكة إلى على مثل ما حصل لأبى الحصين من شيخ الديكة . فقال الوزير : ينعم مولانا الأجل بتقرير هذا المثل

[٥٩] قال الملك : سمعت مخبراً أنه كان فى بعض القرى للرئيس ديك حسن الخلق وديك<sup>(٤)</sup> ، مرت به التجارب وقرأ تواريخ المشارق والمغارب ، ومضى عليه من العمر سنون ، وأطلع من حوادث الزمان على فنون ،

(١) الفراعل ، مفردا الفرعل : الضبع .

(٢) العساير ، مفردا العسير : النمر .

(٣) صراخه .

(٤) سمين .

وقاسى حلوه ومره وعانى حرّه وقَرّه ، وقطع للثعالب شبك مصايد وتخلص لابن آوى من ورطات مكاييد ، ورأى من الزمان وبنيه نواب وشدائد ، وحفظ وقائع لبنات آوى وثعالب ، وطالع من كتب حيلها طلائع كتائب وأحكم من طرائقها عجائب وغرائب ، فاتفق له فى بعض الأحيان أنه وقف على بعض الجدران ، فنظر فى عطفيه وتأمل فى نقش برديه فرأى خيال تاجه العقيقى ، ونظر إلى خده الشقيقى<sup>(١)</sup> ، ونفض برائله<sup>(٢)</sup> ، المنفش ، وسراويله المنقش ، والثوب الذى رقمه نقاش القدرة من المقطع والمبرقش فأعجبته نفسه ، وأذن فاطرية حسه وتذكر ما قاله الأسعد المادح فى المعتصم بن صمادح<sup>(٣)</sup> وهو :

كَأَن أَنْوَشِرَوَانَ أَعْطَاةَ تَاجِهِ      وَنَاطَتَ عَلَيْهِ كَفَ مَارِيَةِ الْقُرْطَا  
سَبَى حَلَّةَ الطَاوُسِ حُسْنَ يَاسِهِ      وَلَمْ يَكْفِهِ حَتَّى سَبَى الْمِشِيَّةَ الْبَطَا

فصار يتيه ويتبختر ويتقصف ويتخطر ، فاستهواه التمشى سويعة<sup>(٤)</sup> ، حتى أبعد عن الضيعة ، فصعد إلى جدار وكان قد انتصف النهار فرفع صوته بالأذان فأنسى صوته الكنانى والدهان ، فسمعه ثعلب فقال : مطلب ، وسارع من وكره وحمل شبكة مكره ، وتوجه إليه فرآه فسلم عليه ، فلما أحس به أبو اليقظان طفر إلى أعلى الجدران ، ثم حياه تحية مشتاق وترامى لديه ترامى العشاق .

وقال أنعش الله بدنك وروحك ، وروى من كاسات الحياة غبوقك

(١) نسبة إلى شقائق النعمان ذات اللون الأحمر .

(٢) ما حول عنق الطائر من الريش .

(٣) المعتصم بن صمادح :السلطان ، أبو يحيى التحيبى الأندلسى ، محمد بن معن كان حليماً جواداً ، ممدحاً وكان فيه خير ودين وتواضع وعقل تام ، مات فى ربيع الآخر سنة (٤٨٤هـ) سير أعلام النبلاء (٤:٢٥) .

(٤) تصغير لساعة .

وصبوحك ، فإنك أحببت الأرواح والأبدان ؛ بطيب النغم والصياح فى الآذان ، فإن لى زماناً لم أسمع بمثل هذا الصوت ، وذاك الله نوابب الفوت ومصائب الموت ، وقد جئت لأسلم عليك وأذكرك ما أسدى من النعم إليك ، وأبشرك ببشارة وهى أربح تجارة وأنجح من الولاية والإمارة ، لم يتفق مثلها فى سالف الدهر ولا يقع نظيرها إلى آخر العصر ، وهى أن السلطان أيد الله بدولته أركان الإيمان ، أمر منادياً فنادى بالأمان والاطمئنان ، وإجراء مياه العدل والإحسان ، من حدائق الصحبة والصدائقة فى كل بستان ، وأن تشمل الحدائقة كل حيوان من الطير والوحش والحياتان ، ولا يقتصر فيها على جنس الإنسان ، فيشارك فيها الوحوش والسباع ، والبهائم والضباع ، والأروى<sup>(١)</sup> والنعام ، والصقر والحمام ، والضئب والنون<sup>(٢)</sup> وأبو قلمون ، ويتعاملون بالعدل والإنصاف والإسعاف دون ، ولا يجرى بينهم إلا المصادقة وحسن المعاشرة والمرافقة ؛ فتمحى من لوح صدورهم نقوش العداوة والمنافقة فيطير القطا مع العقاب ، ويبيت العصفور مع الغراب ، ويرعى الذئب مع الأرنب ، ويتأخى الديك والثعلب ، وفى الجملة : لا يتعدى أحد على أحد فتأمن الفارة من الهرة ، والخروف من الأسد ، وإذا كان الأمر كذا فقد ارتفع الشر والأذى ، فلا بد أن يمثل هذا المرسوم ، ويترك ما بيننا من العداوة والخلق المذموم ، ويجزى بيننا بعد اليوم المصادقة ، وتتفتح أبواب المحبة والمرافقة ، ولا ينفر أحد منا من صاحبه بل يراعى مودته ويبالغ فى حفظ جانبه .

وجعل الثعلب يقرر هذا المقال ، والديك يلتفت إلى اليمين والشمال ، ويحتاط غاية الاحتياط ، ولا يلتفت إلى هذا الهديان والخياط ، فقال الثعلب : يا أخى، مالك عن سماع كلامى مرتخى ، أنا أبشرك ببشائر عظيمة لم تتفق فى

(١) الضأن التى تعيش فى الجبال .

(٢) الحوت .

الأعصر القديمة ، وإنما برزت بها مراسيم مولانا السلطان الجسيمة ، وأراك لا تلتفت إلى هذا الكلام ، ولا تسر بهذا اللطف العام ، ولا تلتفت إلى ولا تعول على ، وتستشرف على بعد الشيء ، فهلا أخبرتني بما أضمرت ونويت ، وتطلعني فيما تتناول إليه على ما رأيت ؛ حتى أعرف في أي شيء أنت ، وهل ركنت إلى أخباري وسكنت .

فقال : أرى عجاجاً ثائراً<sup>(١)</sup> ، ونقعاً إلى العنان فائراً<sup>(٢)</sup> ، وحيواناً جارياً كأنه البرق سارياً ، ولا عرفت ما هو ؛ ولكنه أجرى من الهوا فقال أبو الحصين وقد نسي المكر والمين : بالله يا أبا نيهان حقق لي هذا الحيوان ، فقال : حيوان رشيق له آذان طوال وخصر دقيق ، لا الخيل تلحقه ولا الريح تسبقه ، فرجفت قوائم الثعلب وطلب الميرب ، فقال أبو المنذر : تلبث يا أبا الحصين واصبر ؛ حتى أحقق رؤيته وأتبين ماهيته ، فإنه يا أبا الحصين يسبق طرف العين ، ويكاد أبا النجم يخلف النجم في الرجم ، فقال : أخذني فوادي ، وما هذا وقت التمادي ، ثم أخذ يسليح وولى وهو يصدح بقوله :

لابسُ التاج العقيقى      لا تَقِفْ فى طريقى  
إن يَكُنْ ذا الوصفِ حقاً      فهو واللّه السلوقى<sup>(٣)</sup>

فقال الديك : وإذا كان وقد قلت إن السلطان رسم بالصلح بين سائر الحيوان ، فلا بأس منه عليك فتلبث حتى يجيء ويقبل يدك ، وتعد بيننا عقود الصداقة ويصير رفيقنا ونصير رفاقه .

فقال : مالى برويته حاجة ، فدع عنك المحاجة واللجاجة . فقال : أو ما زعمت يا أبا وثاب أن السلطان رسم للأعداء والأصحاب أن يسلكوا طرائق

(١) الغبار الثائر .

(٢) الصراخ العال المخيف .

(٣) السلوقى : كلب الصيد .

الأصدقاء والأحباب ، فلو خالف المرسوم هذا الكلب لما قابله الملك إلا بالقتل والصلب . قال : لعل هذا المشوم لم يبلغه المرسوم ، ثم ولى هارباً وقصد للخلاص جانباً

وإنما أوردت يا نفيس هذا المثال ؛ لتقيس أحوال من دان لك من هذا الحيوان ، ولا تشقها بعصا واحدة ، واحسب حل كل واحد على حده ، فربما يكون في هذه البهائم من لا هو بأحوال الصلح عالم ، ولم تبلغه الدعوة ، وإنما إنضاف بسبب رجوه ، أو أمن على سبيل التبعية والتقليد ، ولم يطلع على موارد الوعد والوعيد ، ولا وقف على ما وقع من الاتفاق ، ولا يثبت لمصادمة اللقاء وقت التلاقي ، فيصدر منكم حركة تؤدي إلى قلة بركة ، وتستطرد إلى نفرة جفول<sup>(١)</sup> فيدهمنا هدم ما أسسناه على غفول ، ويقع من الفساد ما لا يمكن تلافيه ، ويضيع نقود جواهر جهننا وكدنا فيه ، وإذا كانت الدنيا محل العوارض ، والغالب أنه عند مشاركة المقصود يحصل العارض ، والعاقل لا يغفل عن هذا الخطر فعند صفو الليالي يحدث الكدر ، وقد كفاك من ناداك بقوله :

إذا قَرَبْتِ بِدَاكِ إِلَى مَرَامِ      وَقَلْتِ تَخَوَّلْتِ نَفْسِي مَنَامَا  
فَلَا تَأْمَنِ مِنَ الدُّمْرِ اخْتِلَاسَا      بَحْوَلِ فَمَكْرِهِ فِي ذَا تَنَاهَا  
كَجَانٍ لَمْ يُصَيِّهِ الثَّنَوْتُكَ إِلَّا      وَقَدْ وَصَلْتِ يَدَاؤُهُ إِلَى جَنَاهَا

فالرأى السديد يا أبا سعيد يقتضى أن تمضى الحمامة المطوقة إلى تلك الجموع المفارقة ، وتتأدى في كل نادى بين الحاضر والبادى والرائح والغادي ، بحقائق الأمور وتطبيب خاطر أجمهور ، وما هم قادمون عليه ومن هم الواصلون إليه ؛ ليعلموا أنهم في صفتهم رابحون ، وأنهم على هدى من ربهم وأنهم مفلحون .

(١) الشرود .

فتوجهت الحمامة بهذه النقوش وشهرت النداء فى طوائف الوحوش ، بما هم عليه قادمون ، وأنهم للملك يسار خادمون ، ثم تبعها الوزير ومعه كل أمير وكبير ، من خواص المباشرين والأعيان الملازمين ، وكبراء الأقطاب ورؤساء الأخيار ، واستقبلوا ملوك الوحوش والهوام ، ورؤساء السوائم والسوام ، وقابلوا ملتقاهم بالإعزاز والإكرام ، ووعدوهم بكل خير وإحسان ، ووصلوا بهم إلى ميدان الأمان ، وحين حل عليهم نظر السلطان؛ قبلوا الأرض ووقفوا فى مقام العرض ، وأدوا من واجب العبودية النفل والفرص ، فأنزل كلا فى مقامه ، بعد أن أحله فى محل إكرامه ، وأفاض عليه خلع إحسانه وإنعامه ، وعلت منزلة الوزير ، وتقدم كما تقدم وأشير ، وصفا لهم الزمان وعاش فى ظل حدلهم كل ضعيف من الحيوان ، وتقلبوا فى رياض الأمانى على بساط الأمان.

وفائدة هذه الحكايات تنبيه أشرف جنس المخلوقات ، وأطف طائفة المكونات وهو نوع الإنسان ، الذى اختصه الله تعالى بأنواع الإحسان ، وأيده بالعقل وأمه بالنقل ، على أنه إذا كان هذا الفعل الجليل يصدر فى التنظير والتمثيل ، من أخس الحيوانات ومالا يعقل من الموجودات ، فلأن يصدر من أولى النهى وأولى الفضل والمكارم والعلوى ، أولى وأخرى ؛ لاسيما من رفع الله فى الدنيا مقداره ، وأعلى على فم الخلائق مناره ، وحكمه فى عبيده المستضعفين واسترعاه على رعية سامعين مطيعين ، وسلطه على دمائهم وأموالهم ، وبسط يده ولسانه فى رفاهيتهم ونكالهم .

والأصل فى هذا كله : قول من عم عبيده بفضله ، وبقوله اهتدى العالمون ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

آخر الباب السادس والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ، آمين .